أغنية سومر

حكاية الأفعى والنسر

الطبعة الأولى بالتعاون

مع الاتحاد العام للكتَّاب والأدباء الفلسطينيين

نيسان 2026

قم الإيداع عن كتاب " أغنية سومر:

حكاية الأفعى والنسر" لمؤلفه فادي البرغوثي

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الفلسطينية (PS-2025-540)

الواصفات: أدب// رواية/

يتحمل المؤلف/الناشر كامل المسؤولية القانونية عن مُنتجه.

Fadij.barghouthi@gmail.com

+970594523565

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، لا يسمح باستخدام أي جزء من هذه الرواية بأي شكل إلا بموافقة مسبقة ومكتوبة من المؤلف.

ISBN 978-9950-28-027-4

ALL rights reserved. No part of this book may be reproduced

in any form or by any means without the prior permission of the writer

لوحة الغلاف: مراد الحلايقة Murhalindo@gmail.com. +628578110088

لوحة الغلاف: الرَّقيم الطيني: أغنية حُب إلى الملك السومريّ شو سين (ق 21 ق.م). متحف إسطنبول - قسم ما بين النهرين. رقم #2461.

إهداء إلى

عرَّاف الثقافة الفلسطينية الراحل

حسين جميل البرغوثي

شكر خاص

لمن ساهم في إنجاز هذا العمل

التحرير: نعمة تيسير

التدقيق اللغوي: محاسن البرغوثي

كرمل البرغوثي

النقد الأدبي: لينا وشادي بدوان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39)

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ"

صَدَقَ اللهُ العَظيم

(سورة يوسف)

1 - في تلك الأيام العتيقة

كتبَ المهاجر:

وإن كنت اعتقد أنَّ هذه الرواية تستحقُّ القراءة - وهذا اعتقاد شخصيٌّ غير ملزم لأحد منكم - ولأنني أخشى ألَّا تنال إعجاب بعضكم أو غالبيتكم، فتهدرون وقتًا ثمينًا ويكون قبض الريح ما تحصدون. لهذا السبب أقدِّم ملخَّصًا مقتضبًا لمضمونها، كما هي العادة في البحث العلمي، وهي عادة غير متعارف عليها في الأعمال الروائيَّة على أي حال، أقدِّمها على شكل قصَّة قصيرة بنهاية مواربة فأعفيكم من هدر وقتكم في قراءتها كاملة:

هي حكاية نسر وأفعى، بدأت في ذلك الزمن الذي علاه الغبار وآلَ إلى طين ورماد، زمن ما قبل الطوفان العظيم وقبل أن يُرفع أيُّ عرش ملكيّ على وجه الأرض. في تلك الأيَّام العتيقة، في تلك الأزمنة القديمة، ابتنى نسر لنفسه عشًّا أعلى شجرة، كان يشعر بضعف في مخالبه، وجناحيه، ونظره، ولم يعُد قادرًا على إغماض جَفنيه ليرتاح قليلًا، فغفوة قد تكلّفه حياته بلدغة من جارته التي تسكن جُحرًا أسفل الشجرة، جارته التي بقيت كما كانت دومًا حيويَّة وخصبة وسامَّة، بعد أن سرقت والتهمت عشبة الشباب الأبديّ، وصارت تجدِّد جلدها كلَّ ستة أشهر بعد بيات شتويّ طويل تكون فيه قد نالت كفايتها من الرَّاحة لتستعيد طاقتها وعافيتها. لكنَّ الجارة أيضًا لم تكن لتأمن جارها المتربِّص بها، فلطالما آمنت بأنَّه يُضمر لها شرًّا في فؤاده، وينتظر سُباتها ليَنسُر لحمها على مهل، لقمة لقمة.

"هلُمّي أيَّتها الجارة نتعاهد ونُقسم أن نكون صديقين، شركاء في الحياة لا يخون أحدنا الآخر ولا يغدر به، نحيا كما ينبغي لنا أن نحيا، أحرارًا ومتساوين." اقترح النسر.

لم تجد الأفعى مانعًا من أخذ ميثاقه وقبول عرضه.

"سأقبل عرضك أيُّها النسر فلا تغدر بي كما غدر الوضيع آنزو[1] بسماء تعلوه."

هكذا تصادق نسر ضعيف وأفعى خصبة، وشهدت سماء على عهدهما وقسَمهما، وشهدت على عهدهما وقسَمهما الضفاف المقدَّسة. مع كلِّ صباح من صباحات "الزمن الجديد" كان النسر المُنهك يرفرف بحثًا عن طريدة، فيأكل هو وفراخه من صيده القليل، وتأكل من صيده الأفعى وفراخها كذلك، ومع كلِّ صباح حارق تكمن الأفعى بين عشها وزرعها فتأكل هي والنسر، ويُطعم صغارهما من صيدها. في ذات صباح من تلك الصباحات العتيقة، في صباح شاق وقائظ وطويل، غادرت الأفعى مكمنها راجعة إلى جحرها فلم تجد فراخها ولم ترَ أثرًا لشريكها الذي طار بعيدًا بعد أن وكَّر بطنه وأشبع فراخه من لحم فراخها. ندِمت على قبول ميثاقه وقسَمه وعَلا ضُغاؤها واستدعت شهودها: السماء وضفاف النهر. شَكت لهما غدره، شَكت لهما حنثه بيمينه وغضبَت، غضبَت كثيرًا، وأقسمَت بسعة الأفق وقوس الهلال، وزرع الحقل وأعناق التلال، وبيت الرَّمل وبطن الجبال أن تنتقم منه انتقامًا لم يقع على أحد قبله، لن يقع على أحد بعده.

كمنَت له في بطن ثور قتلته بلدغة مميتة، وتداعت جوارح الطير من كلِّ حجم ولون على لحم الثور، كلٌّ يأخذ نصيبه، لكنَّ الأفعى ظلَّت ساكنة، انتظرت يومًا

[1] آنزو: طائر الرَعد، وكان موكلاً بحراسة لوح المصائِر (الأقدار).

فيومًا ثانيًا، شهرًا فشهرًا عاشرًا، حتى ظهر النسر، دنا وابتعد، حلَّق ودوَّم، حام ورفرف، راقب بصبر وأسفَّ النظر إلى اللحموانتظر. وبعد أن استمدَّ الطمأنينة من المشهد الماثل أمامه أيْ من الطيور الآمنة التي تداعت على كومة اللحم، جثمَ على الثور القتيل يتناول قُوت يومه فجاءته اللَّدغة من مأمنه.

لحُسن طالعه ربَّما، وربَّما لسوء طالعه أنَّ شريكته القديمة لم تكُ تنوي قتله، بل شلَّ حركته فحسْب، وخلع مخالبه فحسْب، ونتف ريشه فحسْب، وأن تعذِّبه عذابًا لا يطاق ولا ينتهي، وحسْب! وهذا ما كان: عَلا صفيره وهي تنتف قوادم جناحيه ريشة فريشة، وتنتف خوافيهما ريشة ريشة، وتخلّع مخالبه مخلبًا فآخر، وتغرز أنيابها في قلبه مرَّة، ومرَّة ثانية فثالثة دون أن تشفق عليه بجرعة سُمٍّ زائدة تنهي بها عذاباته. عذَّبته يومًا ويومًا ثانيًا، شهرًا وشهرًا ثالثًا.. لألف سنة أو يزيد. غرسَت أنيابها عميقًا في واهِنَة أضلاعه وجرَّته إلى بئر جرور ورمته فيه، لا هو حيٌّ فيرجى شفاؤه، ولا هو ميتٌ فيُنسى مصيره[2].

ذلك ما حدث مع خصْمين صارا صديقين حُرَّين متساويين ثمَّ عادا يتربَّص أحدهما بالآخر، ذلك أنَّ معجزة حدثت للنسر فلم يمت. بل قُدِّر له أن يصبح أقوى مخلبًا، وأعلى جناحًا، وأكثر خصبًا، ونما ريشه فصار أجمل وأطول، وأصلب وأنعم. لم يعُد ذلك الطير المُنهك العاجز عن التحليق بعيدًا في الحقول وعاليًا في زرقة السماء. عاد وفرض سيادته من عُلاه ثانية وخضعت له السماء الدنيا ورضيت بعهده وقسَمه وميثاقه، كما رضيت بذلك وخضعت له الضفاف المقدَّسة، وعلى الأفعى فرض عهدًا جديدًا ثانيًا وشراكة جديدة وقسَمًا جديدًا

[2] مقولة عربية، كوَصفٍ، أو تشبيهٍ، أو مثلٍ.

على الوفاء له، وعدم الغدر به، عهدًا جديدًا بين نسر حُرٍّ وأفعى مقيَّدة. ستقبع في جحرها يومًا فيومًا ثانيًا.. لألف سنة أو يزيد، تنتظر يومًا سانحًا لتمزّق فيه الميثاق شرَّ تمزيق، وتبعثر زمنه القديم - الجديد.

أنهى المهاجر كتابة المقدِّمة على الرَّقيم تاركًا باب النهاية مواربًا، ولكنَّه ترك كذلك ملاحظتين للقارئ، الأولى: انتهى الملخَّص. الثانية: لتعلم أيُّها القارئ أنَّ هذا النصَّ **سيبدو نصًّا مفكَّكًا**، مُتخمًا بالاحتفالات، والحرائق، والحوادث الغريبة، والرموز، والأساطير، والسِّحر، والأحلام، كعَين كاميرا تلتقط صورًا لا روابط بينها، لذا اقتضى التنويه.

ختمَ الرَّقيمَ الطينيّ بختم أسطوانيّ يحمل اسم جلجامش، الملك الذي كُتِب الرَّقيمُ في عهده، ونشره على برميل ليجفَّ ووضع عود القصب الذي يستخدم للطباعة على الرُّقم جانبًا. وقد بدأ باستخدام الرُّقم وقلم القصب منذ زمن بعد أن نفذ الحبر من قلمه الذي اشتراه والدفتر من مكتبة في بلاده فلسطين. يُحدِث قلم القصب حفرًا في الطين على شكل مسمار لذا سمِّيَت بالكتابة المسماريَّة، وقد تعلَّمها مؤخَّرًا، ذلك أنَّه لم يكن ليصبح تاجر أوانٍ نحاسيَّة عند جيلا - مالكة حانة الغزالة - لم يكن ليصبح كذلك دون مقدرة على كتابة التفاصيل الخاصَّة بالتجارة بتلك اللغة، حتى إنَّ اختراع الكتابة نفسها، كنقطة فاصلة بين زمنين: التاريخ وما قبل التاريخ، كان نتيجة تطور العلاقات الإنتاجيَّة والحاجة لتنظيمها وتوثيقها. لذا فقد تعلَّم المسماريَّة مسبقًا، أيْ قبل أن يجد نفسه غريبًا، في مدينة غريبة، وزمن غريب.

أطلَّت فتاة هوى برأسها من الباب الخلفيّ لحانة الغزالة، حيث تعمل هي كذلك:

"سيّدتي تطلبك." كانت الحانة شبه خالية عندما دخل، فناداه إنشيا، صديقه التاجر الذي تعرَّف إليه هنا في أوروك:

"هنا أيُّها المهاجر."

جلس يداعب "فتاة بهجة" وينتظر حضور جيلا، وصلت ورطَّبت بالخمر الأحمر شفاهها التي لم تعد متهوِّرة منذ تلك الحادثة الغريبة:

"لن تعمل بعد اليوم في حفر الأقنية أيُّها المهاجر، دفعتُ عنك المبلغ المطلوب لمكتب البلاط الملكيّ، ومن هذه اللحظة ستعمل عندي وترافق إنشيا لتأمين ما يلزم الحانة."

جرعت جرعة أخرى من أحمر الخمر وصمتت تحدِّق كغزالة في إنشيا، فقد كان خاصَّتها وكانت ظبيته المفضَّلة، دبَّ بأصابعه على فخذها الأبيض، سألته:

"هل التقيته؟" (تقصد ذلك الغريب، فما برحت تكرِّر السؤال عنه صباحًا ومساء).

"لا، لم التقه."

لا إنشيا، ولا بنات الهوى، ولا أحد آخر عرف على وجه اليقين أسباب وتفاصيل تلك الحادثة التي وقعت لها مع الغريب، ولا من هو، ولا من أين أتى، ولا أين اختفى، ولا من دعاه. جُلَّ ما عرفه المهاجر ورؤوسها، أيْ التاجر وبنات الهوى، هو تشبُّثها بالغريب تشبُّث غريق بموجة، رغم أنَّها رأته مصادفة لوهلة مضاءة بقمر عتيق، لوهلة لم تكُ تكفي فراشة لتطير. لم تُشِح بنظرها عن حبيبها:

"لم التقه، ولا سمعتُ شيئًا جديدًا عنه. كل ما عرفته إشاعات عن طفلة تلبس الخيش وتظهر أحيانًا في حقل القصب، يقال بأنَّها على صلة قرابة به." أجاب

وجرع النبيذ دفعة واحدة.

لم تقُل شيئًا، نظراتها تسمَّرت على أرضيَّة الحانة الحجريَّة، تابع بصمت سير أصابعه على فخذها الأبيض، رفع نظره إلى عينيها الصغيرتين المائلتين قليلًا إلى الوراء، ثمَّ نزولًا إلى شفاهها الصامتة كمَعبد مهجور، أخذت شهيقًا عميقًا وجرعة خمر وغادرت. ولقد حيَّرهم اختلاف حالها، كانوا قد عرفوها فتاة جامحة راقصة محبَّة، وقيل بأنَّ ذلك الغريب الذي تنتظره أقام زمنًا في كوخ قصَب جنوب المدينة ورأته مصادفة آنذاك، وبعد رحيله يتأبَّط حقل القصب انقلب حالها إلى حزن شفيف صريح، وإلى صمت دائم وكأنَّها نذرت ألَّا تكلِّم إنسيًا، ولم يعُد يُرى منها إلَّا بعض ما عرفناه: شرب الخمر، وتأمُّل النجوم.

صارت تبدو ككومة رمل وسط الحانة أحيانًا، أو تزرع نفسها كأعجاز نخل أمام بوابة القمر. قالت بأنَّها تراه - في أوقات استثنائية - شبه فراشة ملوَّنة تطير نحو المعبد الأبيض، أو تراه طفلة غير ناعلة تمشي على ضفاف الفرات، أو كنوتيّ يركب موجة مبلَّلة في النهر الأصفر. وقالت عنه بأنَّه دائم التحوُّل، ويغيِّر هيئته كثيرًا وأوقاتَ ظهوره وأمكنة إقامته، وبأنَّها ستبحث عنه وتجده ثانية.

المهاجر، أيْ الرجل الذي يقصُّ عليكم حكاية الأفعى والنسر، لا مكان له في هذه البلاد، وليس له من الأصدقاء إلَّا إنشيا، وجيلا، وفتيات الهوى. ومنذ دهر وهو منشغل في البحث عن خيط يدلُّه على باب الخروج من المتاهة. عبر بابًا تلو آخر حتى فقد الاتجاه تمامًا وكأنَّ كلَّ المسارب ترسم أحجية دائريَّة تعود به إلى وسطها. وقد حدَّثته نفسه بعد ذلك اللقاء الأخير في الحانة أنَّ الغريب خيط خلاص فتطوَّع للبحث عنه معهما، لذا اعتادوا الاجتماع تحضيرًا لرحلتهم بحثًا عنه، ذلك الذي رحل يتأبَّط حقل القصب.

تبعها إنشيا إلى خلف الحانة، إلى باحة مستطيلة جدرانها مبنيَّة من الآجر المشويّ، جلس يسند ظهره إلى برميل جعة، نظرت إليه صامتة ولاحظ رموشها تتمسَّك بدمعة تحاول الإفلات، قالت بحزن واضح:

"سأبحث عنه وأجده. وإلَّا سنحيا هنا إلى الأبد، في برد هذا الجحيم."

"ولكن .." غادرت دون أن تصغي له.

أمَّا عن كيف وصل المهاجر إلى أوروك، فإليكم ما رُوي عنه:

كان يبحث عن زمن لا غبار عليه. مضى يبحث عنه في زمن عتيق لا يعلوه الغبار فحسْب بل ويرقد تحت تلال من الرَّمل والرَّماد. كي يرجع إلى هناك كان عليه العبور من بابل أولًا ليتزوَّد بما يحتاجه لمتابعة سفره إلى وجهته، فحمل قربة ماء وطعامًا قليلًا وقلم حبر ودفترًا صغيرًا، وفأسًا كي يحفر في الماضي كمُنقبي الآثار، ثمَّ ركب حماره ومضى. وخلال ثلاث سنوات قضاها راكبًا خياله قطع نحو خمسة وعشرين قرنًا إلى الوراء فوصل بابل، محطَّته الأولى:

ربط حماره في جذع نخلة في رصيف مخصَّص لربط الدَّواب، قريبًا من الإيزاجيلا - المعبد الرفيع. كانت أيام فرح وأعياد في بابل، وساحات المعبد والشوارع المحيطة مكتظة بالناس من مختلف أرجاء الإمبراطورية المترامية أطرافها بين سواحل البحرين الأسفل والأعلى[3]، على جانب البوابة الشرقيَّة - من حيث عبر - جداريَّة ضخمة كُتِب عليها بالمسماريَّة مطلع أسطورة الخليقة "عندما في الأعالي". اعتقد بأنَّه وصل إلى الحدائق المعلَّقة، وعندما تأمَّل البناء الضخم على شكل هرم مُدرَّج من طبقات عدَّة يعلوها بناء أزرق اختلط الأمر عليه. لم يكن يرى في الطبقات السبع أيَّ حدائق معلَّقة ولا حتى شجرة واحدة.

"عمتنَّ صباحًا أيَّتها السيّدات." تبادلت "السيّدات" الضحك.

---

[3] البَحر الأسفل (البحر المرّ): هي التسمية السومريّة للخليج العربي.
والبَحر الأعلى هو البَحر الأبيض المتوسط.

"عمتَ صباحًا أيُّها السيّد." ردَّت إحداهنَّ فارتبك مبتسمًا.

"هل لي أن أسأل أين تقع الحدائق المعلَّقة؟ ليس ذلك البناء هو الحدائق على ما أظن!"

"لا، ذلك البناء هو برج بابل، بيت أساس السَماوات[4] والأرض. أمَّا الحدائق فتقع في أقصى المدينة، تصلها لو تابعت سيرك صعودًا في شارع الموكب: هذا الشارع. في نهايته ستكون عن يمينك عند بوابة عشتار[5]." أوضحت إحداهنَّ.

"أمَّا هذا البناء فهو معبد الإيزاجيلا أيُّها السيّد، وفي هذا اليوم تقام احتفالات عيد الأكيتو، لا بدَّ أنك لم تشاهد مثلها من حيث أتيتَ." قالت ثالثتهنَّ.

"يسرُّني ذلك."

أومأت المرأة التي دعَته برأسها وسارت إلى جانبه.

"أشكرك على الدعوة."

"من أين أتيت؟ أنت مسافر ومن غير أهل البلاد."

"من الأراضي المنخفضة، جنوب غابة الأرز."

"آه، من أرض كنعان؟ أعرفها، زرتها مرَّة. وأعرف أيضًا أنَّها بلاد عسقلان، البلاد التي ربّاها سربُ حَمام وباعها تاجر، كما يقال."

"يسرُّني ذلك. وها أنا أزور مدينتكم."

مضيا إلى السَّاحة الثالثة وكان الزُّحام يزداد مع كلِّ خطوة:

---

[4] في الإمبراطورية البابلية كانوا يعتقدون بأن السماء مكونة من عدة طبقات.

[5] عِشتار: الاسم البابلي لإنانا السومريّة، إلهة الخِصب والحُب والحَرب.

"تنحَّ جانبًا." ففعل ونظر خلفه.

انفضَّ الجمع فاتحًا ممرًّا لسِرب عربات مذهَّبة تجرُّ كلَّ واحدة منها أربعة خيول بيضاء، يعلو رؤوسها أحمَر الريش وأبيضه، ويقود كلَّ واحدة منها رجل مكشوف الناصيّة يقف بجانب سيّدته، كانت السيّدات الرَّاكبات كاملات الاحتشام والزّينة وقد خمَرْن وجوههنَّ بقماش شفيف. عندما وصلا إلى مقاعد مدرَّجة رأى المنصَّة حيث يقام العرض، كان صوت المؤدِّين مسموعًا بصعوبة. العيون شاخصة إلى منصَّة تعلو مصطبة الإيزاجيلا ومن الجَليّ أنَّها أمضت وقتًا طويلًا شاخصَة تُشاهد، وأنَّ العرض شارف على الانتهاء:

على المنصَّة - المسرح[6] يقف كبير كهنة الإمبراطورية البابليَّة يقصُّ على الخلق أسطورة الخليقة[7]، وعلى الزاوية اليمنى منها، الزاوية الأقرب للعيون الشاخصَة تلتفُّ عصبة من الكهنة - الآلهة بلباس الجلالة والتيجان المقرَّنة، مدرَّعين بالسيوف والقِسيّ والفؤوس، ورغم كلّ عدَّة الحرب هذه يرتعشون خوفًا وفزعًا من الزُّمرة المقابلة: وحوش الأم الكبرى، أحد عشر وحشًا في وضعيَّة الهجوم تتنظر إشارة من قائدها كينغو لتجعل من الآلهة أثرًا بعد عين. خلف الوحوش وقائدها يُرى عرشٌ من مياه متحجِّرة، وما يشبه الأفعى - التنّين متكوِّرة على نفسها كجَنين في سكون محيط بدئيّ، بجلد أسوَد فاحم تمامًا كجلود وحوشها وقائدها.

---

[6] لم يكن المسرح - بالمعنى الإغريقي - قد عُرف آنذاك.

[7] استخدام مصطلح "أسطورة الخليقة" هنا، وليس "أسطورة الخلق" كما تسمى، هو استخدام مقصود، لذا اقتضى التنويه. ي قال مثلاً بأن "الماورائيات الألمانية ليست موجودة إلَّا ما ورا ء نهر الراين."

عبر المنصَّة إله - شاب مُدرَّع بالعواصف والرِّماح وعيونه مسدَّدة كسلاح لا يردُّ إلى زمرة الوحوش المقابلة، انفجر الحشد بصيحات الفرح والتهليل "هو بيل، هو بيل[8].." كان ذلك الشاب هو الإله مردوخ، عِجل السماء المقدَّس ابن أيا ونجمُ العُلا. التَفَّ الآلهة دائرة حوله، وضعوا ثوبًا في وسطها يمتحنون قدرته:

" أيَا ابننا البكر مُرْ هذا الثوب بالفناء، فيفنى.

كلمتك هي الأعلى،

كلمتك لا تخيب،

أيَا ابننا البكر مُرْ الثوب الفاني أن يرجع كما كان، فيرجع.

كلمتك هي الأعلى،

كلمتك لا تُرَدّ."

عزفت الموسيقى الدينية فأنشد الكالا[9]:

---

[8] لم يكن يُسمح للعامّة في الإمبراطورية البابلية بلفظ أسم كبير الآلهة (مردوخ) مباشرة. لذا كان يشارُ إليه ب"بيل". ويبدو أن هذا الهتاف "هو بيل" مرتبط بشكلٍ ما باسم "هُبَل"، كبير آلهة العصر الجاهلي في الجزيرة العربية، عدا عن ارتباطه ب"بعل"، الإله الكنعاني، و"ها-بيل وقا- بيل" (اسطورة الرَّاعي والفَلاح).

[9] الكَالا: طبقة الكهنة المتخصِّصين في أداء الأناشيد الدينية.

"بكلمة أمرَ بفناء الثوب فزال،

هو بيل،

كلمته هي الحقُّ.

بكلمة أمرَ الثوب فرجع كما كان،

هو بيل،

كلمته هي الخلق."

حلَّ الصمت إلَّا من ترانيم طقسيَّة لنايات، وكأنَّها - الترانيمُ - تأتي من عالم آخر. فتح كبير الكَالا فمه بالكلام، وأردف:

"هو بيل، دان له كبار العُلا وصغارهم، انحنت له قاماتهم كما السنابل تحنيها الريح."

سأل المهاجر "السيّدة":

"كيف عرفتنَّ بأنني من غير هذه البلاد؟"

"لأننا لسنا سيّدات أيُّها السيّد! بل جاريات." ابتسَمت "هل ترى النساء هنا؟ كلُّ النساء السَّافرات هنَّ جاريات، لا يسمح لنا بخَمْر رؤوسنا، هذا هو القانون في بابل." لم تدَعه يسأل أو يُعلِّق، بل أشارت إلى العرض فصمت ونظر.

أطبق الصمت ثانية، سكنَت الأنفاس وسكتت الآلهة حتى ظنَّ المهاجر أنَّ شيئًا مهولًا على وشك الوقوع، وهذا ما حدث. مزَّقت طبول الحرب والمزامير آذان الجميع وتراجعت وحوش الأم المرعبة للوراء فزعة وكأنَّ عاصفة عصفت بها أو شهابًا سقط عليها. بصوت واحد أنشد الآلهة:

"امضِ يا صاحبَ الأسماء،

كلامك عالٍ

وأمرك نافذ،

امضِ يا صاحبَ الخمسين[10]،

سيفك ماضٍ

وصدرك صاعد.

يا صاحبَ العرش

احفظ من وضع عليك اتِّكاله،

احفظ من مالَ إليك قلبُه واستماله.

إلى من أعدَّت لنا وحوشًا مُرعبة صوِّب كلمتك النافذة:

أحد عشر وحشًا أعدَّت لنا:

زفيرها نارٌ،

شهيقها نارٌ.

أعدَّتها لنا في السِّر،

[10] لمردوخ خَمسونَ اسما.

أعدَّتها لنا في العَلن:

دمها سُمٌّ،

لحمها مُرٌّ.

اقضِ عليها

- يا صاحبَ الخمسين -

وعلى من سار خلفها في رِكاب الشرّ."

استمر الرقص والقصف حتى انتصف الليل، ثمَّ تفرَّق الناس على موعد بالجزئين الثاني والثالث من العَرض في الليلة التالية، أمَّا المهاجر فمضى في الصباح عبر شارع الموكب مجاوزًا البلاط الملكيَّ وصولًا إلى الحدائق المعلَّقة التي طالما قرأ وسمع عنها. كُتِب بأنَّها تقع هنا - قرب البوابة الزرقاء، بوابة عشتار [11]- فتخيَّل أنَّها تقع هنا.

الحدائق أوسع ممَّا تخيَّل وأعلى بناء وأكثر ازدحامًا. تتوزَّع فيها المقاعد في ظلال الأشجار الوارفة فتبدو كغابة مدهامَّة. تنحَّى جانبًا إلى يسار الدَّرج الصاعد إلى الحديقة الثالثة كي لا يعيق ضحكات أطفال يتسابقون بملابس زاهية. على يمين الجدران الاستناديَّة عشرات العبيد ينشلون الماء بدِلاء مربوطة بحبال كتَّان، ومن الممكن تمييزهم عن غيرهم بنواصيهم المقصوصة إلى أعلى جباههم. اتجَه يسارًا ودخل الحديقة الثانية عابرًا بين تماثيل لثيران مجنحة ضخمة وأسُود

[11] يخالف عدد من الباحثين رأي الأغلبية حول مكان وجود الحدائق المعلّقة، فيجادلون بأنها بنيت في نينوى وليس في بابل.

وأفاع ونسور، وحيوانات أخرى لم يألفْها. شربَ وغسلَ يديه من ماء حوض مشيَّد من صخور الديورانت يقع على يمين المدخل.

"عساكَ بخير أيُّها السيّد." قال شابٌ يشربُ وأضاف "أنت لست من هذه البلاد، أليس كذلك؟"

"لا، لستُ من بابل."

"ومن بلاد بعيدة، أخمِّن ذلك، أنا تاجر أيُّها السيّد، ولقد طوَّفتُ كثيرًا ورأيت من الغرائب أكثر، ولكن لم أرَ أحدًا يرتدي ملابسَ بهذه الغرابة قطّ! من أين؟"

"من البلاد المنخفضة. عابر سبيل إلى الشمال."

"آه، حقًّا؟ أتلبسونَ هكذا هناك؟ ربَّما عليَّ التحوُّل لتجارة الملابس بدلًا من الطيور النادرة."

قطع حديثهما وصول عبيد يحملون الدِلاء.

"هيَّا أيُّها الكنعاني، دع الرجال الذين لا يرفعون أبصارهم[12] يتمُّون عملهم فهذا ما خلقوا له. لنذهب إلى البِركة هناك." في الوسط - بين الأشجار - نوافير تعلوها أسود وتنانين برونزيَّة تتدفَّق من أفواهها المياه. أما في وسط الحديقة تمامًا فبِركة ضخمة على شكل نجمة ثُمانية تطفو أزهار اللوتس على سطحها، ومكتظة بضحكات من يسبحون فيها أو يجلسون على حوافِّها المطليَّة بالأزرق السماويّ، أو يعتلون تماثيل أسُود تحرسها، وفي وسطها ينتصب تمثال ضخم لعشتار، سيّدة بابل والرافدين.

[12] وصفٌ يُطلق على العبيد، كذلك "رجالُ الجَبل" و"نساء الجَبل".

"وأنت؟ من هنا، من بابل؟" سأل المهاجر. "من سيبار، مدينة الطيور. وأنا الآن في بابل كما ترى، ذلك أنني تاجر متجوّل، اسمي آدون." صمت قليلًا "ما اسمك أيُّها السيّد؟ لا بدَّ أنكم تحملون أسماء في أرض كنعان!" قبل أن يسمع الإجابة أضاف "لنجلس هناك على المقعد الشاغر تحت شجرة الزيزفون." قال وانشغل بالحديث مع تاجر آخر. أخرج صاحب الحمار دفتره وقلم الحبر وانهمك بتسجيل ملاحظة عامة:

"في الحديقة الثالثة يوجد تمثال هو الأضخم على الإطلاق، تمثال مذهَّب لمردوخ، إله الإمبراطورية الأكبر وسيّد بابل وحاميها، يزرع حربته البرونزيَّة في فم أفعى من نحاس معتَّق. الأفعى متوحشة فاغرة فمها وتكشف عن أنياب حادَّة مطليَّة بالأحمر القاني، ربَّما من أثر الحربة المزروعة عميقًا في جوفها[13]."
وكتب ملاحظة للقارئ، وستصبح كتابة الملاحظات عادة لديه، لا لشيء، مجرَّد فكرة عابرة أحبَّها فاعتاد عليها "هذه الأفعى المتوحشة هي وحش قديم، قديم جدًا، وكما يوجد أنواع نسور كثيرة، كمَردوخ مثلًا، فإنَّ أنواع الأفاعي كثيرة، منها هذه الأفعى – التنّين، والأفعى السوداء السَّامة التي تعضُّ ذنبها فترسم دائرة، وهما نوعان لا يبدِّلان جلدهما أبدًا. ومن أنواع الأفاعي التي تبدِّل جلدها الأفعى ذات الجرس وتلك التي سرقت عشبة الشباب الأبدي."

[13] يبدو أن هذه الأسطورة (قتل مردوخ للأم البدئية – تيامت - التي تظهر كتنين يرمز لقوى الشرّ)، هو الأصل لأسطورة قتل القديس مار جرجس للتنين كما تبدو في التراث الديني المسيحي، ويرمز القديس جرجس للقوة الخيّرة.

ترك آدون لتجارته وألقى نفسه على مقعد بجانب سور الحديقة، بحيث يطلُّ من هناك على شارع الموكب[14]، وهو شارع مبلَّط تصطفُّ الأشجار الظَّليلة على جانبيه وتتوسَّطه قناة ماء اصطناعيَّة:

"أحدِّق في البوابة الرئيسية للإيزاجيلا، بوابة مرتفعة عشرات الأذرع، وللمعبد شبابيك واسعة وساحات شواسع. أشعر بالمرارة من قدَرنا نحن البشر: كلُّنا سائر إلى الفناء، ورغم ذلك - في حياتنا القصيرة هذه - لا نعدم وسيلة كي نجعلها مليئة بالحزن والأسى، يتخللها فرح عابر، قليل، وضئيل. تلعب بنا الأقدار لعبة نرد، أو نشبه كُرة يركلها فريقان: فريق السماء وفريق الشياطين، كلٌّ يركلها باتجاه مختلف ونحن لسنا سوى كُرة للرَّكل في الحالتين."

رمى ببصره عبر الحدائق المعلَّقة مرورًا بفراغ فيه أشجار النخيل تبدو كعِقد انفرطت حبَّاته في حادثة عفويَّة. على مدخل الحدائق - من الجهة الجنوبيَّة - ساحة مبلَّطة بالآجر الأحمر بين جدارين عاليين: سُور الحدائق، وجدار بيت المحبَّة، وإلى جنوبهما المساحة المخصَّصة للأحياء السكنيَّة. أمَّا جنوب الضفَّة الأخرى لنهر الفرات فتتعالى زاقورة إيتيمينانكي[15] ومعبد الإيزاجيلا. لمحَ طيفَ امرأة تقترب وتقضم حبَّة عنب فتكشف عن أسنان من حليب أبيض. جلست على المقعد الخشبيّ الذي على يساره، نظرت إلى الإيزاجيلا على الضفَّة الأخرى، قالت وهي تضع فخذًا على فخذ:

---

[14] شارع واسع يقطع بابِل من جنوبها لشمالها، يمَر عبره موكب الآلهة في عيد رأس السنة البابلية، لذلك سُمي "شارع المَوكِب".

[15] برجُ بابل.

"كبير وجميل هو الإيزاجيلا، جميل هذا البيت الرفيع الواصل بين الأرض والسماء. يبني البشر معابد ضخمة بشبابيك واسعة، شبابيك واسعة وبوابات عالية!"

صمتت لبرهة وهي تتأمَّل الخيوط الذهبيَّة على ثوبها الأبيض الشفيف الموشَّى:

"ضخامة المعابد مرآة لعمق الفراغ الداخليّ، لعمق الفجوة في روح الإنسان! لن تسدَّ الحجارة الكبيرة ولا ألواح الأرز الفجوة الواسعة في الروح كشبابيك المعبد. لو كانت أصغر - الفجوات التي في القلوب - لأمكن الناس التعبُّد في كوخ صغير، أو على ضفَّة نهر، أو في ظلال دالية.."

أومأت لوصيفتها التي ترتدي الجلال والجَمال، وتشع كأنَّها ملكة الشرق كلِّه، انحنت الوصيفة:

"سيّدتي."

"أيْ ننشوبور وصيفتي الطيّبة، صُبِّي الشرابَ القويَّ لهذا الفتى الذي قلبه على حَجر وعلى الأشواك وجهه."

أردفت وهي تتأمَّل أطفالًا يلعبون تحت شجرة صَفصاف:

"لعلَّك أيُّها العابر لم تسمع عن سنمار من قبل، وبالتأكيد لم تسمع عنه هنا في بابل ذلك أنه لم يولد بعد! سنمار هذا مهندس سيَبني قصرًا رائعًا[16]. وسيكون القصر أعجوبة زمانه. سيجعل كلَّ هندسته ترتكز على حَجر واحد فإن أُزيحَ الحَجر من مكانه انقضَّ القصر وصار إلى ركام. فعلتَ ما فعل سنمار قبلك: بنيتَ

[16] الإشارة هنا إلى قصر الخورنق الذي بناه سنمار لملك الحيرة النعمان بن المنذر، القرن الخامس الميلادي.

قصرك، معبدك الخاصّ، وجعلته يرتكز على حَجر واحد، "حَجر سنمارك"! حتى أنت نسيت أو تناسيت مكانه! ولكنَّها - هي - ولأنَّها تتقن فنَّ المرأة عرفت مكان الحَجر وأزاحته، فصِرتَ إلى ركام وتنتحب غير مصدِّق عينيك!"

أغلق جفونه على زجاج مكسَّر في شرايينه وعلى ثقل في فؤاده.

"بنيتَ معبدك على الرَّمل وجعلته يرتكز على حَجر واحد! لو اعتنيتَ بقلبك جيِّدًا لكفاكَ كوخ بسيط، أو دالية عنب أيُّها القادم من بعيد!"

أفاق من سُباته. كان يحلم أو كان يهذي، لكنَّه وجد كأس الشراب في يده، وأمَّا القمر فكان معلَّقًا على سور المدينة وقد استدار كوكبُ الزُّهرة. نظر حوله: لم يكن هناك من أحد سواه. كان يحلم أو يهذي، أمَّا في صحوه الآن فيرى نجمة المساء تسبح في النهر، يرى ربَّة الأرض تسافر بين الكواكب تجرُّ عربتها عفاريت العاصفة، رأى ذلك رأيَ العَين.

ربَت آدون على كتفه فأيقظه من هذيانه "قلتَ بأنك مسافر إلى قرية ما في الشمال، الشمال بعيد جدًا والطرق خطِرة. وأنت غريب مُعدَم لا تملك سوى حمار وحفنة نقود. لمَ لا تسافر إلى أوروك أولًا، تعمل هناك وتحصل على قوت يومك وتوفِّر بعض المال، ثمَّ تكمل طريقك شمالًا."
وهذا ما حدث، لحق المهاجر بالتاجر إلى السوق وباع حماره، ثمَّ توجَّها معًا إلى بوابة نينا ومنها إلى ميناء المدينة. دفع أجرة الرُّكوب على متن سفينة تجارية سافرت به نزولًا عبر مياه الفرات إلى ميناء القمر الجديد، أكبر موانئ أوروك.

كان ظهر السفينة مزدحمًا بالبضائع و"رجال الجبل" يجذِّفون والسّياط تلهب ظهورهم العارية، و"نساء الجبل" يطُفْنَ على التجَّار يرفهنَ عنهم. أسند مرفقيه إلى حافة السفينة يتأمَّل مجرى النهر. أراد السفر شمالًا وبدلًا من ذلك ركله أحد

الفريقين في اتجاه معاكس، فوجد نفسه يبحر جنوبًا في صفقة تجارية عائدًا في الزمن ألفي سنة أخرى إلى الوراء: إلى مملكة أوروك[17] في القرن السادس والعشرين قبل الميلاد، إلى الزمن الذي يقبض فيه جلجامش على عنق البلاد كما يقبض طفل عصبيٌّ على لعبة طفل آخر.

راح يستمع لحديث تاجرين، أحدهما يسند ظهره إلى حافة السفينة والآخر يتساءل "هل تعتقد أنَّ الملك آجا[18] سيَفرض حصارًا نهريًّا على أوروك؟ يقال بأنَّه توقَّف عن غزو عيلام[19] ويستعدُّ للنَيل من جلجامش."

"هذا ما سمعته أنا أيضًا. علينا أن نستعدَّ - نحن التجَّار- في حال اندلعت الحرب بينهما، فلن تكون حربًا قصيرة. كلاهما محارب جبَّار، وملكانِ لا نظير لهما بين الفُراتَين، وإن كان جلجامش هو الأقوى في البلاد فإن جند آجا أعظم من جند أوروك. ورغم أنني تاجر من حيّ كولَّاب[20] أيْ أنني أوروكيُّ الأصل، لكنني أتمنَّى أن يُهزم جلجامش ويجثو على ركبتيه يسترحم آجا، أو يُقتل بسيفه، فإنَّ ظلمه جاوز كلَّ حد. آهٍ، لن أنسى تلك الليلة الملعونة التي اعتلى فيها خطيبتي!"

" لن أتزَّوج قبل أن يموت! على الأقل لن يكون ابنه ننجال أَدهى منه ولا أقوى." علَّق التاجر الآخر.

---

[17] مدينة أوروك (الوركاء)، واحدة من أشهر مدن العراق القديمة، وشهدت اختراع الكتابة المسمارية - أولَ كتابة في التاريخ - تقعُ جنوب العراق، على ضَفاف نهر الفرات.

[18] ملك مملكة كِيش، وكان معاصرًا لجلجامش ملك أوروك. موقع كِيش هو تل الأحيمر حاليًا، جنوب بغداد.

[19] مملكة عيلام، مملكة قديمة كانت تقعُ في جنوب شرق إيران حاليًا.

[20] حيّ كولَّاب: أقدَم أحياء مدينة أوروك.

*****

في البراري الخطرة الواسعة جنوب أجينا، وهي بلدة صغيرة من أعمال أوروك، هناك حيث تكثر وحوش البَرّ، وشِرار الطير، وسَوامُّ الأرض، كان نينورتا - صيَّاد في العشرين من عمره - يتفقَّد فخاخه عند مورد الماء فوجدها مخلَّعة وملقاة جانبًا وحفرَ مصائده مردومة. لم يُفلح في صيد شيء يستحقُّ الذِكر لأسابيع خلت، ولا أفلح في معرفة المعتدي الذي يخلعُ فخاخه ويردم حفرَه حتى قبل أن تصطاد شيئًا. "ذلك الشرير المخرِّب ليس مهتمًّا حتى بالسرقة!" قال لنفسه. لم يكن ليمرَّ على ما يحدث مرور العابرين، فهذه الأرض هو وريثها وشقيقته شامات، أراد معاقبة ذلك المخرِّب عقابًا قاسيًا لذا مضى يترصَّده طوال اليومين الماضيين.

في ذلك العصر كان مشغولًا يعيد نصب فخاخه فسمع صوت حركة قريب، اتخذ من الحشائش الطويلة مُعتصمًا، اقتربت زمزمة تَرد الماء يتقدَّمها رجل بَرّ مفتول العضلات يقلع ما تبقى من الفخاخ ويقذفها بعيدًا. كان رجل البراري طويل القامة، عارم الجسم، فيه شراسة السّباع. امتقع وجه الصيَّاد فسكنَ بين الحشائش مشلول الحركة، فكَّر فيما عليه فعله: البقاء ساكنًا حتى ذهاب ذلك الوحش أم مواجهته؟ فاجأته حركة سريعة من خلفه وقبل أن يدرك ما يجري تهاوى إلى جانبه ضبع اخترقت جسمه حربة عظيمة.

حدَّق نينورتا في الضبع يلفظ أنفاسَه الأخيرة، راودته نفسه أن يتناول الحربة ويرمي بها "الرجل الوحش" ولكنَّه لو فعل - قدَّر ذلك كصيَّاد موهوب - لما استطاع رميها مسافة تزيد عن ثلاثة أذرع فقط! هذا إذا تمكن من خلعها ولم تكن عالقة بين أضلاع الضبع القويَّة. تبع ذلك صوت خشيش يَشي بحركة سريعة ثمَّ ظهر

"الرجل الوحش" منتصبًا أمامه بكلِّ تفاصيله المرعبة وظهره للشمس فبَدا كعملاق مظلم. لم يرَ الصيَّاد ملامح المارد ولكنه رأى شعرَه على كتفيه طويلًا كشَعر امرأة. شحبَ وجه نينورتا واصفَّر كأوراق الخريف، لم تسعفه ركبتاه فقعد على مؤخرته، خلع الوحش حربته ورفعها إلى مستوى كتفه فزحف الصيَّاد على مؤخِّرته وأغمض عينيه وسلَّم أمره لما كُتِب عليه في لوح المصائر[21].

شقيقته الوحيدة شامات، التي تكبره بسنتين فقط وأطول منه بذراع واحد على الأقل، عادت مع ساعة الغسق من معبد الإيجينا. وجدت البيت خاليًا على حاله كما تركته صباح هذا اليوم، ولثلاثة صباحات متتالية قبل هذا الصباح. لم تشعر بالقلق على نينورتا، فمن المعتاد في حياة الصيَّادين عدَم انتظام أوقات عودتهم، ومن المعتاد تأخرهم أحيانًا حتى اليوم التالي أو لعدَّة أيام في حال كان الصيد غير موفَّق. أحضرت له وجبة عشاء من جرايات المعبد ووضعتها على المائدة الصغيرة في باحة البيت ومضت تغتسل في الغرفة الداخليَّة. عندما خرجت وجدت شقيقها يجلس منهك القوى، وجهُه شاحب كمن لم ينم منذ أيام، قصَّ عليها ما حدث معه وختمَ بالقول:

"إذا استمر ذلك الوحش المارد - لم يقُل الشرير أو الوغد كما كان يحدِّث نفسه سابقًا - في تخريب المصائد وردم الحُفر فسأقضي بقيَّة حياتي في مطاردة الأرانب البرّية!" قال مبتسمًا واضعًا الأرنب - غلَّته الوحيدة - على الطاولة. تناولت الأرنب تسلخ جلده، رفع كأس النبيذ إلى أعلى قائلًا:

"في صحَّتك يا وحش البراري."

---

[21] لوح المصائر، أو لوح الأقدار، التسمية السومريّة للوحِ الذي تكتب عليه مصائر جميع المخلوقات.

"هل رآه أحد غيرك؟"

"من صيَّادي أوروك؟ لا، لحسن حظِّهم. كنَّا سمعنا عنه من صيَّادي أور. آهٍ يا أختي لو تدرين كم هو مرعب! حتى أنني لم أفكر في الدفاع عن نفسي ولا امتلكت القوَّة لأسجد أمامه وأطلب الرَّحمة، أغمضت عينيَّ وأسْلَمْت نفسي لما كُتِب في لوح المصائر وانتظرت أن يزرع حربته العظيمة في صدري!"

"أهو مرعب إلى هذا الحدّ؟"

"أكثر ممَّا تتخيَّلين! ولكنه ليس شريرًا، أليس كذلك؟ أنقذني من الضَبع ولم يسرق شيئًا! أما رؤيته فعقدت لساني، لم أستطع النطق بكلمة عندما ذهب تاركًا إيايَّ خلفه كصَنمٍ يجلس على مؤخِّرته. آهٍ كم هو مُرعب! أظنُّ أنَّ الآلهة نفسها ترتعب منه!"

"احفظ لسانك يا أخي ولا ترجم الآلهة بكلام سيرتدُّ إليك يحمل ما حمَّلته من إساءة."

"أعتذر يا أختاه، لا اتعمَّد قول كلمات كهذه."

"قُم اغسل يديك وقدِّم فروض الاحترام للآلهة، وعُد لتناول العشاء."

فعل ما طلبت منه، فهو لم يكن ليرفض طلبًا لشقيقته الكاهنة رغم أنَّه هو نفسه لا يأخذ الآلهة على محمل الجدّ. كانت قد سمعت إشاعات عن ذلك الرجل المارد الذي في الأراضي الغربيَّة الواقعة على بعد ساعتين مضاعفتين أو يزيد عن بلدتها أجينا، حيث أرضهم على الحدِّ الفاصل بين مملكتيّ أوروك شرق الفرات، وأور غربه. سمِعت عن قوَّته وجبروته، عن شَعره الذي يغطي كتفيه كشَعر امرأة، عن جسده المكسوِّ بفرو الضباع. حذَّرت أخاها مرارًا من الذهاب للصيد في تلك

الأراضي ولكنَّه عنيد فيما يخصُّ تلك الأرض، فهي أرضهما ولن يهجرها لأيّ سبب كان، والآن بعد أن صادف ذلك المخلوق لم تعُد قلقة عليه كالسابق، فقد قتل ضبعًا لحمايته، ولم يؤذه ولم يسرق صيده، فهو رغم "هيئته المرعبة يبدو مخلوقًا صالحًا." طمأنت نفسها.

في صباح اليوم التالي ارتدت ثوبها الكتَّاني الأخضر القصير ولفَّت رأسها بخيط أزرق مجدول. انتظرت قليلًا أمام البيت إلى أن وصلت صديقتها روقيا، وهي كاهنة خصب كذلك، وتوجَّهتا مشيًا إلى معبد الإيجينا وهو معبد صغير شُيِّد على مصطبة مرتفعة وسط البلدة:

"هل غادر نينورتا إلى الصيد؟" سألت روقيا.

"غادر فجرًا."

"لم تتحدثي معه في موضوع الزَّواج، أليس كذلك؟ كم مرَّة عليَّ أن أذكِرك؟ صار شابًا و.."

"وسيمًا، أعرف ما ستقولين، ولكنَّه يرفض الحديث في الموضوع."

"ربَّما لأنَّ تكاليف الزَّواج كبيرة على صيَّاد بمثل سنِّه، أنا متأكدة من رغبته في الزَّواج ومن قلقه من تأمين التكاليف، فقولي له إنَّ بالإمكان تدبيرها، نحن كاهنات، والآلهة - كما تعرفين - فاحشة الثراء!"

"لا تقولي كلمات كهذه فمصائب البشر لا تأتي من قلوبهم...."[22]

[22] مصائب البشر لا تأتي من قلوبهم بل من ألسنتهم: حكمة سومريّة.

"بل من ألسنتهم! أعرف ما ستقولين، ولكنني لم أقُل سوى حقيقة مرئية! فالسماء قد بلغت من الثراء حدًّا لا يمكن تجاهله."

"تجاهليه إذًا."

"لن أفعل، أشعر في أحيان كثيرة أنَّ ما نقوم به من أجل خصب البلاد لا جدوى منه، فكلَّما أخصبَت جاء موظَّفو البلاط فأخذوا المحاصيل إلى أوروك، أيُّ ملك هذا الذي ابتلتنا به السماء! هل سمِعت ما وصل من أخبار؟ يقال بأنَّ جلجامش حلمَ بشهاب عظيم يسقط عليه. آهٍ! حتى أنني بتُّ أسهر الليل أحدِّق في السماء انتظر الشهاب أن يسقط عليه ويُخلِّص البلاد من ظلمه. شتَّ ذهني مرَّة أخرى! هل تريدين أن يتزَّوج أم لا."

"لماذا تلحينَ عليَّ أنا، هو من لا يريد!"

"سألحُّ عليك، وتلحينَ عليه، ونلحُّ جميعًا على بعضنا البعض حتى يتزَّوج، فماذا لو ظهر المذنَّب العظيم في واسِطة السماء كسِراج الغولة؟ لن يتزوَّج أبدًا!"

"من هي العروس؟ هل أعرفها؟ لن أزوِّجه إلَّا بفتاة طيِّبة جميلة."

"هي كذلك، وخفيفة الظل: كما ترغبين."

"من هي؟"

"سأخبرك عندما يقتنع."

"حسنًا، لن يقتنع دون معرفتها."

"لن أخبرك. عليك اقناعه أولًا، فلا أرغب برؤيتها في بيت رجل آخر."

"آه! هي مقرَّبة منك إذًا، وإلَّا لمَ تكترثين إن هي انتهت في بيت رجل آخر؟"

وصلتا إلى ساحة الدالية المحاذية لجدار معبد الإيجينا. سارتا بين صفَّين من مقاعد خشبيَّة تظلِّلها أشجار كثيفة ومخصَّصة لجلوس كاهنات الخصب، ويدُّل على هُويتهنَّ جميعًا - ككاهنات خصب - خيط أرزق مجدول على الجبين، ويدُّل كذلك على أنهنَّ متاحات لمنح أجسامهنَّ لمن يطلبها. من الطقوس الدينية أن ينتهي عمل الواحدة منهنَّ بعد منح جسمها لأول رجل يطلبه، ثمَّ تخلع الخيط المجدول ولا تعُد متاحة "للاستخدام" مرَّة أخرى في ذلك اليوم. وظيفتهنَّ هذه تقتصر على أعياد ومناسبات دينية معينة فقط، منها هذه الليلة، ليلة البدر الرَّبيعيّ الثاني. كان طقس الخصب طقسًا دينيًا يقمنَ به نيابة عن المجتمع: يجُدنَ بأجسامهنَّ لضمان عام خصب لشعب الرؤوس السوداء[23]، لذا كانت لهنَّ مكانة دينية لا غبار عليها ويعامَلنَ باحترام في مجتمعهنَّ، وهذا ما يميزهنَّ عن بائعات الهوى. أشارت روقيا إلى مقعد شاغر في ساحة الدالية وعقدت حول رأسها الخيط الأزرق:

"لنجلس هناك. هل ستكونين في بيتك هذا المساء؟"

"أجل، لماذا تسألين؟"

"سأزورك أنا وأمي، هي طلبَت ذلك."

"سأنتظركنَّ ونتناول العشاء معًا. لم أخبرك بما حدث مع نينورتا."

"ما الذي حدث مع العريس المنتظَر؟"

---

[23] لقب يطلق على السومريين.

"أتمنى أن أراه عريسًا! آه من ذلك الفتى."

"سترينه عريسًا إن سمِعت نصيحتي! والآن أخبريني ما الذي حدث معه؟"

قصَّت عليها ما أخبرها به عن مارد البَرّ فشاركت في الحديث كاهنة خصب عاتق تثرثر وتستمع "أتقصدين ذلك الوحش في الأراضي الغربيَّة؟ حدِّثني عنه جارنا الحَطَّاب فقال رأيته ينام على فرع شجرة فرَعت سائر أشجار الغابة، ضخم جسمه، لا يرتدي إلَّا إزارًا من الأغصان يستر بها عورته، أفاق وحدَّق فيَّ من عُلاه ثمَّ قفز من فرع إلى فرع أدنى ثمَّ إلى فرع ثالث. وقال جارنا أنَّ القفزة الأخيرة كانت من ارتفاع عشرين ذراعًا، ومثل قِطّ راح يتقلَّب في الهواء ثمَّ انتصب على الأرض ولم يمسَسْه سوء، فرَّ جارنا تاركًا فأسه وحطبه خلفه. ولكن أتعرفن؟ قال إنَّ شَعر المارد خشن، قصير، رماديٌّ كفَرو الضباع وليس طويلًا كشَعر امرأة."

"على ارتفاع عشرات الأذرع! هل يعقل ذلك؟ ألا يشعر بالرُّعب من النوم معلَّقًا بين السماء والأرض؟ حتى النمور لا تأمن النوم على ارتفاع كهذا!" علَّقت روقيا.

"أكثر من ذلك يا أختي. قال جارنا بأنَّ له أنياب كبيرة تشبه أنياب الفيل، طبعًا ليست كبيرة مثلها بل صغيرة بطول الكفِّ، ولكنَّها بارزة، عاجيَّة، معقوفة، ملتوية هكذا.. نحو الأعلى، كأنياب الفيل."

"هل رأى نينورتا وجهه؟"

"لا، لم يره. كان مظلمًا والشمس من خلفه. لكن معك حق، يبدو مرعِبًا، لن أدع أخي يذهب إلى تلك الأراضي أبدًا."

قَطع حديثهنَّ شابٌ رمى بقطعة نَقد فضيَّة من فئة المينا في حِجر روقيا فنهضت ترافقه إلى غرفة من تلك الغرف المخصَّصَة لهنَّ، غرف صغيرة مشيَّدة على الجانب الآخر لجدار السَّاحة الخارجي ولا تعدُّ جزءًا من المكان المقدَّس.

"سأعود قبلك إلى البيت." قالت روقيا، وأضافت "عليك إنهاء واجبك مبكرًا أنت أيضًا لتَجدي وقتًا لتحضير العشاء." وشبكت يدها بيد الشاب ثمَّ نظرت إلى الخلف نحو شامات "زايا...العروس."

ردَّت شامات الابتسامة بمثلها، ابتسامة رضا وشكر للسماء. لكن لسبب ما رأت صديقتها تتوقف وتطلب من الشاب الانتظار قليلًا. نظرت إلى الخلف لترى ما تنظر إليه روقيا:

"عساكِ بخير يا سيّدتي."

"وأنت كذلك." أجابت، وعادت روقيا ووقفت بجانبها.

"ألستِ شامات؟" لم يكن بحاجة ليضيف "كاهنة الخصْب؟" ذلك أنَّ الخيط الأزرق أجاب عن هذا الجزء من السؤال.

"نعم، أنا هي، لماذا؟" لم تكن بحاجة لتسأل عن هُويَّته، فلباس الأوريكالو (حرس المعبد) وشارة الإيانا - المعبد الأعلى يدًا وبناءً في سومر - يوضحان هُويَّته.

"جئت من أوروك مكلَّفًا من السيّدة العليا للإيانا."

"دمتَ بخير، بماذا أساعدك؟"

"بتحضير نفسكِ للمغادرة غدًا في الصباح الباكر للمثول بين يديها."

"السيّدة العليا؟" سألت روقيا غير متأكدة ممَّا سمعت.

"أجل، السيّدة ننمادا، الكاهنة العليا للإيانا." قال مع وقفات قصيرة بين الكلمات لتأكيد ما يقول.

تبادلت وروقيا النظرات.

"سأكون مستعدة غدًا صباحًا، لي شرف المثول بين يديّ السيّدة، ولكن ألا تخبرني عن السبب؟ لماذا أنا وليس كاهنة غيري؟"

"لا أعرف السبب ولا تسمح مكانتي بالسؤال عنه، قد أمرتُ بإيجادك وفعلت، وقد أمرتُ ألَّا أعود إلَّا معك، وسأفعل."

"سانتظرك غدًا، هنا."

"في الصباح الباكر يا سيّدتي."

في عصر ذلك اليوم عاد نينورتا بغزال حمله على كتفه، فرِحت شامات بالصيد الثمين، فطعام العشاء لن يكون أرنبًا، طلبت منه أن يُعِجِّل بسَلخ الغزال وتقطيع لحمه، وراحت تُحضِّر الحطب:

"هذا صيد يستحقُّ الاحتفاء به. هل ذهبتَ إلى منطقة صيد مختلفة؟ كما وعدت."

"اصطدته من الحقول المرتفعة."

"عجِّل قليلًا، نحن موعودون بضيوف هذا المساء."

"بضيوف؟ من هم؟"

"روقيا، والخالة."

توقف للحظات عن سلخ الجلد، كشف عن فرح غير معهود فيه:

"روقيا والخالة؟"

كان يرغب في أن يسأل إن كانت زايا سترافقهنَّ، لم يفعل رغم السعادة التي يشعر بها عند سماعه اسم زايا، أو لفظه.

"هذا ما قالته روقيا."

"هل أنت متأكدة؟"

"أجل، ما الغريب في ذلك؟"

"لا، لا شيء. أسأل لأعرف كميَّة اللحم التي نحتاجها." تابع سلخ الجلد متجنّبًا اعتراض نظراتها وابتسامتها، ولقطع الطريق عليها أضاف:

"هل لدينا ما يكفي من البازيلاء، أو..الرُمَّان المجفَّف؟ أمْ عليَّ الذهاب للسوق؟"

"عندنا ما يكفي لشهر ولا ينقصنا شيء."

تعرف زايا - شقيقة روقيا - صبيَّة في السابعة عشرة ذات جَمال وبراءة، وأنف رقيق وروح جميلة، لكن لم يخطر في بالها من قبل أنَّ شقيقها مغرم. أنهت تحضير العشاء وأشعلت السُرج وعلَّقت المشعل في المكان المخصَّص له. وصل الضيوف: روقيا وأمها وزايا. رحَّب نينورتا بهنَّ بكثير من الخجل والاحترام و"عساكنَّ بخير"، وكان قد اغتسل وطيَّب جسمه بالعطر ولبِس أبهى ثيابه وجلس كمن خِيط فمه، يمسح بنظره جدران البيت حينًا وحينًا بوابته وكأنَّه يتعرَّف على بيته، وبين الفينة

والأخرى يرمي ببَصره إلى نجوم صغيرة تلوح من بين سعوف النخل التي تسقف الباحة ثمَّ يرمي بنظرة خاطفة إلى زايا كمَن يقرأ طالعه في قسماتها. طلبت منه شامات أن يحضر إبريق الجعة فأنقذته من ارتباكه.

"هل عندكم بصَل؟" سألت "الخالة" أم روقيا وهي تسكب البازيلاء في الأواني الخشبيَّة. وعادة ما يناديها الجيران "بالخالة."

"يوجد يا خالة." أجابت شامات وهمَّت بالنهوض، أمسكت الخالة يدها.

"استريحي يا ابنتي، تعبتِ كثيرًا. زايا، احضِري حبَتيّ بصَل يا ابنتي، وحفنة زبيب إن وجِد."

"حاضر يا أمي."

كقطّة تستكشف الطريق تجاوزت عتبة الغرفة الأماميَّة، مرَّت بجانب صيَّادها، رآها فحيَّاها بانحناءة سريعة مرتبكة وحملَ إبريق الجعة على عجَل ورماها بطرف عينه، فابتسمَت:

"طلبت أمي بصلًا، من أين أصيد حبتيَّ بصَل با نينورتا؟"

"هناك، في الصندوق الأحمر." وضع الإبريق على رفِّ آخر معلَّق على الجدار الجانبيّ وسار بخطى واسعة نحو رفِّ خشبيّ صُفَّت عليه صناديق ملوَّنة. "هذا هو صندوق البصَل." مدَّ يده إلى داخل الصندوق فمدَّت يدها ولامست يده:

"عرفتُ أين هو الآن." احمرَّ وجهه فسبَقها إلى الباحة ثمَّ تذكَّر إبريق الجعة فرجع ثانية، وقبل أن يخرج قالت "هذا صندوق الزَبيب يا نينورتا! ألا تعرف مكان البصَل!" وضحكت تأمره بالتوقف، فتوقف.

"أه، الصندوق البنيّ، هذا..."

"ساعدني يا حُبي" قالت وهي تتأمَّل صيَّادها المرتبِك.

"هذا هو..، آه هو البنيّ." عادا إلى الباحة، سارت أمامه كنجمة زرقاء تتمشَّى في سماء القصدير السومريَّة[24].

جلسوا للعشاء بعد أن غسلوا أيديهم. أدوات المطبخ مصنوعة من خشب الأرز باستثناء السّكين البرونزيّ ووعاء الطبق الرئيسيّ المصنوع من الفخَّار المشويّ. راحت الخالة تسكب البازيلاء، وقطَّعت روقيا البصَل ونثرت الزبيب على وجه القمح المطبوخ المختلط بشرائح الجَزر الملوَّن، أمَّا الطبق الرئيسيّ فكومة من لحم الغزال المشويّ المقطَّع إلى قطع كبيرة ومنثور عليه حبَّ الرُمَّان. رفعت الخالة يدها اليمنى إلى مستوى فمها وحاكى الجميع حركة يدها لترديد دعاء الطعام.

"سلمَت يداك يا ولدي، منذ زمن لم نأكل طعامًا كهذا. صيد الغزلان لم يعُد أمرًا يسيرًا كما كان سابقًا."

"هذا صحيح يا خالة، كنَّا سابقًا نصطاد بسهولة بواسطة الفخاخ والحُفر، أما الآن فعلينا رمي الطرائد بالسهام فإن أصبنا أحداها علينا مطاردتها لمسافة طويلة حتى تُنهك، فالسهامُ[25] كما تعلمين لا تسبب جروحًا قاتلة، لذا، أجل! لم يعُد الأمر سهلًا مذ ظهور ذلك الرجل المارد."

---

[24] كان السومريّون يعتقدون أنَّ السَماء الأولى من القِصدير.

[25] كانت السهام تستخدم للصيد، لكنَّها لم تكن قاتلة، لهذا السبب أيضا لم تكن تستخدم في الحروب آنذاك.

"ما الذي يفعله محاربو أوروك؟ أليس من واجبهم القبض على ذلك المخرِّب؟" علَّقت روقيا باستياء واضح.

"مشغولون!" أجاب نينورتا "فجلجامش لا يترك محاربًا يرتاح في زلَّة ليل ولا سَراة نهار، لم يكتفِ بمضاعفة نوبات الحراسة بل ألحقهم بالعمل في بناء الأسوار وحَفر الآبار!"

"هل رأيته يا ولدي؟ رجلَ البرّ؟" صمتَت قليلًا وأردفت "كانت عرَّافة من مدينة أوما - قبل سنوات طويلة - قد زارت أجينا وقالت إنَّ وحوشًا بشرًا ستتكاثر في الفَلاة قبل أن تأتي البلدة من شمالها، هيئتُهم هيئة البشر الأوائل، لا يعرفون رحمة ولا آلهة. هل هيئته هيئَة البشر الأوائل يا ولدي؟"

"أجل يا خالة. ولكنَّه كان وحده ولم يرَ أحد بشرًا - وحوشًا أخرين، لم يروا سوى سِرب ظباء كان يسوقه. كما أنني صادفته في أرض أمي غربًا، وليس شمالًا."

"لتحفظك السماء وتحفظ أجينا، لن يحدث إلَّا ما كُتِب في لوح المصائر. صحيح يا شامات، أخبرتني روقيا أنَّ أحد الأوريكالو طلبَ منك مرافقته إلى أوروك."

"سأرافقه غدًا للمثول بين يديّ سيّدتنا ننمادا. لم يخبرني عن السبب، فلم يُخبر به هو كذلك."

"هل أنتِ قلقة؟" سألت روقيا، بينما توقف نينورتا عن الأكل يتابع الحوار ويتبادل نظرات التساؤل مع زايا.

"شعرت بقلق حينما أبلغني بالأمر وخارت ركبتاي، هل تتخيَّلين أن تطلب السيّدة الأعلى مكانة وقدسيَّة أحدًا لمقابلتها؟ حتى أنَّ الملكة نفسها لا تعلوها مرتبة وهيبة!"

"لا تقلقي يا ابنتي، صحيح أنَّ هذا حدث كبير وجديد علينا، ولكن لماذا القلق؟ لم تقترفي جريمة، وأنتِ كاهنة تحظى بالحُبِّ والاحترام في كلِّ أجينا، كُلي كثيرًا الآن." وضعَت قطعة لحم أمامها "كُلي فأمامك سفَر شاق."

"سأذهب معكِ يا أختي."

"لا يا نينورتا، سيرافقني أوريكالو الإيانا واثنان من أوريكالو الإيجينا ذهابًا وإيابًا، فلا تقلق أنت كذلك، يكفي ما نحن فيه."

"عليه أن يفعل." قالت زايا، "نحن عائلة واحدة، و..." سكتَت فجأة وابتسمَت وهي تضع اللقمة وتقول لنفسها "اسكتي يا زايا، اسكتي." فهدأ قلبه على وقع "نحن عائلة واحدة."

"ابقَ هنا أيُّها الولد، ماذا ستفعل في أوروك؟ تتسكَّع في طرقاتها إلى أن تنتهي الزيارة؟" رمى بطَرفه إلى زايا فابتسمَت لوصف أمها له بالولد، تابعَت الخالة "هيا صُبَّ الجعة، واسكت."

راحت زايا تجمع فتات اللحم "ستفرح جونة كثيرًا."

"هل نسيتها سائبة يا زايا؟"

"لا يا أمي، أدخلتها إلى الباحة ووضعت لها طعامًا وماء وأغلقت الباب."

"دعينا من القطط الآن. لديَّ ما أتحدَّث به مع نينورتا" قالت روقيا وأردفت "اسمعني جيدًا أيُّها الصيَّاد، أعرف أنَّ عقلك لا يساعدك كثيرًا ولكن إيَّاك واللحاق بأختك وأن تسبب لها المشاكل، هذه مسألة خاصَّة بالكاهنات لا بالصيَّادين."

نظرت إليه زايا ولامسَت يده:

"ماذا...آه..لا، لن أذهب، أعدك بهذا."

"وستذهب للصيد في الحقول المرتفعة كما تريد أختك منك أن تفعل، وعندما ترجع تعال إلى بيتي، أريدك لمسألة ضرورية."

"ربَّما لن أتأخَّر في الصيد غدًا إلَّا إن جاءنا أمرٌ بمطاردة سِباع البرّ والخنازير."

في ساعة متأخرة من ذلك المساء غادر الضيوف، أصرَّ نينورتا على مرافقتهم يحمل وزنة من اللحم المقدَّد إضافة إلى سلَّة رمَّان حمَلتها زايا. لم تنم شامات "ربَّما تريدني أن التحق بالإيانا؟ لا، هذا احتمال بعيد فعَدد كاهنات الخصب في أوروك لا يحصى، هل أوصى أحد من معبد الإيجينا بي؟ لم يذهب أحد إلى الإيانا منذ وقت طويل! عدا عن أنَّ أحدًا لم ينل شرف المثول بين يديها مُذ أصبحَت سيّدة عليا". انشغل عقلها بتقليب الاحتمالات الكثيرة، تقلِّبها كملابسَ بالية فلا تجد ما يفسِّر حدثًا كبيرًا كهذا. شقيقها الوحيد أيضًا ظلَّ مشتَّت الذهن بين الاحتمالات الكثيرة، وابتسامات زايا، وزينتها، وصَدرها العالي، و"نحن عائلة واحدة"، وتلك الذكريات التي لم تغادر باحة منزله، واللمسة التي علِقت في صندوق الزبيب وتشبَّثت بأصابعه. لم ينم هو كذلك ولا رأى في حياته سهامًا بهذه الكثرة تطلق دفعة واحدة، في سهرة واحدة، على قلب واحد.

*****

وصل المهاجر أوروك قبل أيام أربعة فقط، عندما رسَت السفينة القادمة من بابل في ميناء القمر الجديد سأل القبطانَ عن مكان للمبيت فدلَّه على حانة الغزالة. أمضى لياليه الثلاث في سُكر وعبَث حتى مطلع الفجر وبقية الوقت في النوم، وفي ذلك الفجر الرابع أسدل جفونه في الساحة الخلفيَّة للحانة وطافت برأسه أضغاث أحلام تشبه نفايات تراكمت من عصور مختلفة، نصف ساعة فقط هي كلُّ الزمن الذي مضى مذ أغمض عينيه ليفيق فزعًا على قرع طبول دوَّت كهزيم الرَّعد، حثَّ خطاه على عجَل إلى الداخل.

"ما الذي يحدث؟"

"طبول الملك" أجاب إنشيا.

"ولماذا يقرع الملك طبولًا في الفجر؟"

"على قرع طبوله تنهض الرعيَّة، أصبح ذلك سُنَّة في أوروك، فإذا أردت ألَّا تصبح رجل جبل تقصُّ ناصيته فإليك ما عليك فعله حين تسمع طبول جلجامش: سارع إلى أقرب ساحة وقف هناك وانتظر الأوامر الملكيَّة" قال بجدِّية تامَّة، "تعال." تبعه المهاجر إلى غرفة داخلية صغيرة، فتح إنشيا صندوقًا تتراكم فيه الملابس المتداعية:

"ارتدِ ما يناسبك ثمَّ اتَّجه يمينًا حتى أول النخل، ثمَّ يسارًا فتصِل ساحة عامَّة يجتمع فيها الخلق مباشرة بعد قرع الطبول."

وصل الساحة العامَّة، ساحة متوسّطة الحجم يتداعى إليها "الخلق" من كلِّ اتجاه. بعد وقت قصير عجَّت الساحة بالناس وتوجَّهت أنظار الحشد إلى دكَّة مرتفعة عدَّة أذرع. وقف حارس ملكيّ على الدكَّة مخاطبًا جموع العمال:

"يا أهل أوروك، من ترك خلفه متكاسلًا فليرجع إليه ويأخذ بيده، هذا إذا كان لا يرغب في رؤيته موسومًا بوَسم رجال الجبل أو نسائهم، وليصطحبه للأعمال المقرَّرة. وهذه هي الأعمال المقرَّرة لكم هذا الشهر: يتوجَّه الشباب منكم والشَّابات إلى ضفَّة النهر الشماليَّة لإتمام حَفر الأقنية وبناء السدود، ويتوجَّه كبار السِّن والفتيان إلى حقول الظلِّ لقطف الثمار. المحاربون سيشرفون على إعلاء الأسوار وحُسن سير العمل في ورش الحرفيين وحقول الظلِّ، قد سمِعتم.. فتحرَّكوا."

انفضَّ العمال كلٌّ إلى وجهته. التحق المهاجر بفوج يتَّجه إلى حقول الظلِّ فأمسك بكتفه حارسُ بلاط:

"أنت."

ضغط الحارس على كتفه حتى حنى قامته:

"هكذا تفعل عندما أتحدَّث إليك. أين تتَّجه؟"

"إلى حقول الظلّ."

"إلى حقول الظلِّ **يا سيّدي**. هذه هي الطريقة الصحيحة للإجابة، يبدو أنك بصحَّة جيدة! أين كنت تعمل في الأشهر السابقة؟"

"وصلتُ أوروك قبل أربعة أيام فقط، قادمًا من بابل،..يا سيّدي."

"حسنًا. التَحِق بذلك الفوج الذاهب إلى الأقنية، وكلَّما قرعت الطبول ستكون وجهتك إلى هناك ما دمتَ هنا. هيه أنت، انتظر." أوقفَ رجلًا آخر موسومًا بوَسم العبوديَّة الملكيّ، "نعم أنت، ما اسمك أيُّها العبد؟"

"زمري[26] يا سيّدي."

"خذ هذا الرجل معك إلى الأقنية يا زمري. دمتما بخير، انصرِفا."

وصل إلى ضفَّة الفرات الشماليَّة مع زمري والفوج الذي أُلحق به، وكان قد سبقهم إلى هناك بضعة آلاف من رجال الجبل ونسائه. على مدِّ البصر تتراءى لهما أهرامات من المعدَّات اللازمة للشُغل. تبادلا الحديث خلال سيرهم وقدَّم زمري نفسَه فقال بأنَّه من بلدة تدعى أجينا، وطلب من زميله الجديد ملازمته ليوضح له ما عليه عمله كلَّ يوم. ناوله فأسًا برونزيًا من كومة قريبة أمَّا هو فحمل مجرفة. بدآ الحفر في مسار قناة حدَّده مسبقًا مهندسو البلاط بعلامات من الطابوق النيّء وألواح طينيَّة طُبع عليها عمق الحَفر المطلوب ومسار القناة، وكان رجال الجبل قد بدأوا العمل مبكرًا فنجَلوا الأعشاب والشجيرات الشوكيَّة وقصَبوا القصَب لتهيئة الأرض. بدا للمهاجر أنَّ المجرى المطلوب حفره بلا نهاية، وهو ليس مجرى واحدًا فحسْب بل واحد من مئات المجاري المتقاربة في مساراتها، وينتشر الحفَّارون كجيش النَّمل على طول المسار الذي بدا بلا بداية أيضًا. تابَعا الحَفر بلا توقف.

---

[26] معظم أسماء شخصيات الرواية هي أسماء سومريَّة، لكن بعض الأسماء ك "زمري" هي أسماء أموريَة ساميَّة، كإشارة ضمنية إلى التداخل السومري – السامي الحضاري. كما أن بعض الممالك كمملكتي ماري وبابل ذات أغلبية ساميَّة.

أُنْهِك المهاجر فألقى بالفأس جانبًا وجلس على الحافة، تناول زمري الفأس ووضعها في يده:

"تابِع عملك. أنت جديد هنا ولا أظنُّك تعرف عاقبة ما تفعل."

"لا شقاء أشدّ من هذا الشقاء سوى تقطيع الأطراف!"

"لا، لا يوجد تقطيع أطراف في بلادنا، فإليك ما لا تعرفه بعد: عليك ألَّا تتوقف عن العمل، ستكتسب الخبرة في كيفيَّة توزيع الجهد فيصبح العمل أقلَّ شقاء، امسك الفأس الآن قبل أن يراك أحد المشرفين فلا أظنُّك ترغب في جرِّك من ناصيتك إلى ورش الحدادة الملكيَّة لتوسَم بالعبوديَّة، وأن تعمل عملًا مضاعفًا ويزج بك في "بيت الأسْر"، وتحصل على وجبة واحدة طوال اليوم، من رغيف شعير واحد وقطعة من لحم الخنزير البريِّ وكأس حليب، ثمَّ لا تنال حريَّتك ثانية جزاء تكاسلك إلَّا بعد سنة كاملة! هذا ما حدث معي، ألا ترى ناصيتي مقصوصة؟"

تابعا العمل حتى قصرَ ظلُّ العصا. نادى المشرفون معلنين عن موعد وجبة الإفطار في ساعة الظهيرة، تولَّيا إلى ظلال الشجر مع آلاف غيرهم، أغمض المهاجر عينيه قليلًا قبل أن يفتحهما ثانية على صوت الجواري يحملنَ أواني الطعام فتوزَّعَ الجمع يفترشون الأرض في شكل دوائر صغيرة، وضمَّت مجموعتهما ثلاثة رجال آخرين جميعهم من حيّ كولَّاب[27] القديم. ناولتهم امرأة جبل أرغفة خمسة

[27] حيّ كولَّاب: أقدم أحياء مدينة أوروك.

من خبز الشعير، رغيفًا واحدًا لكلِّ واحد منهم، وكأسًا من الجعة ووعاء من حساء القُرفس والخضار.

"من أين أنت أيُّها الحُرُّ؟" سأل عبد مقصوصُ الناصيَّة، فتطوَّع مقصوصُ ناصية آخر، أي زمري، بالإجابة نيابة عنه.

سأل مقصوصٌ ثالث:

"من الأراضي المنخفضة؟ تقصد تلك الأهوار الواقعة جنوبًا قرب إريدو؟"

"لا، بل الأراضي الواقعة جنوب الأموريين." أوضح زمري.

سأل المهاجر رفيقَه الجديد زمري "لماذا أنت هنا؟ أقصدُ لماذا جرَّك حرس البلاط من أجينا إلى هنا؟"

"حكاية طويلة، وأختصر كعادتي فأقول: كان علينا نحن الصيَّادين - وفق الأوامر الملكيَّة - أن نطارد الوحوش البريَّة ليُسمح لنا بالصيد في الأوقات الخالية من الوحوش، وقد أنهكنا ذلك، لم نعُد نجد الوقت الكافي للصيد وتأمين قُوت يومنا. في يوم - قبل سنة تقريبًا، فأنا سأنهي عقوبتي وأعود حُرًّا بعد شهرين كاملين وخمسة أيام وبقيَّة هذا اليوم - في ذلك اليوم كان علينا أن نطارد قطيع وحوش في منطقة خطرة، وكنَّا كلما ذهبنا إلى هناك عدنا أقل عددًا! رفضْتُ الالتحاق بالمطاردة. في اليوم التالي قُرعت طبول الملك في أجينا وسيَّرني الحرس مقيَّدًا إلى ورَش الحدادة. وسِمْتُ بالعبوديَّة وقُصَّت ناصيتي كما ترى." وأضاف ساخرًا" رغم كلِّ شيء فأنا عبد ملكيٌّ وهذا امتياز مقارنة بهؤلاء المقصوصين." قال ونظر مبتسمًا إلى الرجال الثلاثة الآخرين الذين يفترشون الأرض معهم، فهم عبيد

لأسباب أخرى ولأسياد آخرين، من هذه الناحية فهم يَحظون بامتيازات أقلَّ منه بكثير، إن جازَ أن تسمَّى كذلك.

كان زمري موهوبًا في قصِّ الحكايات فيمُر الوقت أسرع وأقل شقاء، وكان على حقّ كذلك بخصوص التعوُّد على الشقاء والتكيُّف معه، فبعد أسبوع واحد فقط لم يعُد العمل شاقًا إلى الحد الذي كان عليه في البداية، أصبح ممتعًا أحيانًا عندما يكون الجوُّ غائمًا، أو يتاح للشغيلة بعض الوقت للراحة بين كلِّ جولة والجولة التالية، ذلك أنَّ حاملات القُفَف كنَّ بحاجة إلى وقت أطول لتفريغ القُفَف من الوقت اللازم لملئها، أيْ أنَّ تعبهنَّ منح الحفَّارين وقتًا معقولًا لالتقاط أنفاسهم، كما أنَّ عملهم بالسُخرة كان أقلَّ شقاء من أعمال العبوديَّة الصَريحة حيث درجة الشقاء مضاعفة ومضاعف وقتها، أمَّا رفض كليهما فليس خيارًا إلَّا إن رغب مقصوصٌ أن يُلزمه السَّوط لزُوم ما لا يلزم، في زمن كهذا.

عاد المهاجر متأخرًا منهكًا من الحَرِّ الشديد، ومن تمديد وقت العمل لإنجاز ما تأخَّروا في إنجازه وفق الجدول المعلَن مسبقًا. اغتسل فور وصوله حانة الغزالة - وكان قد دفع ما تبقى من نقوده لقاء الإقامة في الحانة شهرًا كاملًا - وجلس قليلًا برفقة جيلا وإنشيا ثمَّ مضى إلى سريره في السَّاحة الخلفيَّة، تاركًا صاحبة الحانة وإنشيا لحديثهما عن ذلك الغريب الذي في حقل القصب، وتاركًا بائعات الهوى لزبائنهنَّ. حدَّق في قِطع السماء المضيئة المتناثرة بين سَعف النخيل وشرد ذهنه فيما حدث ظهر ذلك اليوم، اليوم السادس من الأسبوع الأخير، وكان الناس يتجهزون لسَبتهم: أوقف عمل الجميع صوت رجل يصرخ بكلمات لا رابط بينها، تباعد نَفرٌ من رجال ونساء الجبل، واندفع من بينهم رجل كهل عارٍ إلَّا من إزار، استمرَّ في الصراخ والهرولة بخطوات واسعة متباعدة ومنتظمة، يده اليمنى ثابتة

ومستقيمة تتدلَّى على جانبه كأنَّها مشلولة أو مخلوعة من الكتف. رغم ذلك الصخب لم يضحك أحد، ولم يسخر منه أحد، وقالت نِسْوة بأنَّ السُخرية منه تعدُّ إثمًا لا يُغتفر، ورفعنَ كفًّا مفتوحة للأعلى وتمتمْن بالعزائم.

"من هذا يا زمري؟"

"الشَقِرَّاق أيُّها المهاجر! ألا تعرف حكايته؟ لا! حكاية طويلة: كان يعمل في قصر فتاة نبيلة من بادتبيرا ورثَت عن أمها - عدا عن الجَمال - ما يكفي لإطعام المملكة عامًا كاملًا، كانت تحنو عليه. وماذا بإمكان شاب فقير أن يفعل أمام جَمال نبيل يحنو عليه؟ وقعَ في إسارِها فحذَّرته "لا يأخذنَّك قلبك بعيدًا أيُّها الشاب، أشفق عليك فقط ولا أموت حُبًّا فيك." ومنذ ذلك اليوم يجيءُ من أور راجلًا قاطعًا كلَّ تلك المسافة إلى بوابة الإيانا لعلَّها تشفق عليه بنظرة ولو كانت عابرة! وفي يوم ما هاجمه خنزير وكسَر له ذراعه لذا لقِّبَ بطير الشَقِرَّاق"

"ولماذا طير الشَقِرَّاق؟"

"آه! كانت سيدتنا إنانا أحبَّت طير شَقِرَّاق مزَركش، أحبَّته وكسرت جناحه، وكحال هذا الرجل ستسمع صراخه في الضُّحى: واجناحاه واجناحاه!"

في اليوم التالي، يوم الراحة السومريّ، كان المهاجر راجعًا من رصيف القمر الجديد. خلال عبوره بوابة المزاليج السبعة شارد الذهن لم ينتبه لما يحدث حوله، ولا سمع صوت العربات تقترب منه. ربَت على كتفه رجل عاري الصدر مفتول العضلات يرتدي مئزَرا، ومُزَنَّر بحزام جِلد يتدلَّى منه سيف برونزيّ قصير:

"اجلس على ركبتيك أيُّها الرجل."

لم يفهم الأمر، ولكنَّه تدارك نفسه وجلس على ركبتيه عندما رأى جميع من في الشارع يفعلون. مرَّت العربات يتقدَّمها رجال عراة الصدور ومضى الجميع كلٌّ إلى وجهته، أمَّا هو فوقف يلاحق ببصره العربة المذهَّبة: عربة تجرُّها ثمانية خيول[28] بيضاء مزيَّنة بالريش، وعلى مقدِّمتها نقش بارز لأفعى، لحَظ عندما مرَّت العربة سيّدة مبرقعة بقماش شفيف. في اليوم التالي أخبر زمري بما شهد.

"أنت رجل محظوظ حقًّا، فالمصادفة وحدها - مع كثير من الطالِع الحسن - من ترمي بأحد في مسار تعبره السيّدة ننمادا."

"آه، إذًا أنا حقًّا رأيت الملكة! ننمادا هو اسمها؟ صحيح أنني لم أرَ وجهها، رأيت رموشها فقط. أليس ذلك مذهلًا رغم ذلك؟"

"قلْ جلالة الملكة أيُّها المهاجر ولا تودي بنا إلى التهلكة. أمَّا التي صادفتها فهي ننمادا، سيّدة الإيانا وليس الملكة. انظر هناك، خلف الأسوار، أتَرى ذلك البناء الضخم الذي يكاد يختفي في الغيوم؟ انظر إلى أعلاه: تلك الغرفة العالية الزرقاء هي الإيكيبار، المزار المقدَّس حيث تقيم السيّدة العليا ننمادا."

البناء ضخم لا نظير له في أوروك، والمزار يبدو مثل كوكب الزُّهرة يلمع في طرف السماء ويثير في الرائي الدهشة والخوف معًا. سبق أن رأى المهاجر الإيانا منذ يومه الأول هنا، رآه من مسافة بعيدة وكان يعتقد بأنَّه قصر الملك جلجامش، والآن يهمس لنفسه "رموش سيّدة الإيانا تعلو حتى على قامة الملك وقصره!" استثارت الرُّموش فضوله:

---

[28] تاريخيًا، لم تكن الخيول قد عُرفت في الرافدين آنذاك، بل كان هناك نوع خاص (انقرضَ لاحقا) من حُمر الوَحش وكان يستخدم لجرّالعربات والحرب، فالإشارة إلى الخيول هنا استخدمت لهدف بصريّ فقط.

"إذًا ننمادا أعلى مكانة من جلالة الملكة؟"

"تابع عملك أيُّها الثرثار." دفعه أحد المشرفين من قافيَته. أمَّا زمري فقفَز في الحفرة والمجرفة في يده. بعد أن ابتعد المشرف عدَّة خطوات ابتسَم زمري وهمَس:

"إن بقيت تثرثر معي ستبقى حرًّا لبضعة أيام فقط!"

*****

في أجينا كثر الكلام عن طفلة تظهر أحيانًا من لا مكان في المراعي البعيدة، لكن لا أحد جزمَ بحقيقة ظهورها من عدمه. كان أول من جاء بنبأ عنها صيَّاد معروف بسعة خياله، وكان أهل البلدة يختلفون في شخص الصيَّاد نفسه، فمنهم من يعتقد بأنَّ أخباره إبداع خيال لا يؤخذ به، ومنهم من ظنَّه يختلق الحوادث اختلاقًا فيتهمونه بالكذب ويسخرون من أكاذيبه، وزاد في ذلك أنَّ آخرين راحوا ينسبون له الأخبار الكاذبة عن حوادث يستحيل حدوثها. كان هذا الصيَّاد - أمار - هو أول من أخبر عن وجود طفلة في البراري، قال بأنَّه كان يترصَّد غزالًا ليرميه بسهمه، اقترب الغزال فأوتر قوسَه لكنَّه سمِع خشيشًا قريبًا فسَكن لوهلة وأصغى، لمحَ طفلة تلبس ثوبًا من الخيش، لمحها ثمَّ اختفت ثانية، وكان الغزال قد ابتعد وأفلت.

قصَّ ما حدث معه على الصيَّادين رفاقه، وكان هو الوحيد بينهم الذي لم يُفلح في صيد شيء في ذلك اليوم باستثناء خنُّوص كُسِرت ساقه:

"آه، تخاريف كهذه لن تمنع ندم زوجتك على زواجها من فاشل، اختلق قصَّة مقنعة." قال صيَّاد ضخم الأنف، ضيِّق العينين.

"معك حقّ، ربَّما ستطردني زوجتي من البيت. عليَّ ابتكار قصَّة أفضل. ولكنِّي يا رفيقي رأيتُ طفلة تلبس الخيش، لا أكذب فلتصدقني هذه المرَّة، رغم أنَّ ضخامة أنفك تحول دون اتفاقنا."

"لو قلت إنَّ ضبعًا هاجمك لكان في أكاذيبك ما هو مقنع وبطولي، أو - مثلًا - بأنك لمحتَ جالا صغيرة[29]، لكن أن تظهر لك طفلة في صباح باكر في براري بعيدة هذا البعد! إذا كان هذا ما ستخبر به زوجتك فالأفضل ألَّا ترجع اليها هذه الليلة." علَّق صيَّاد ثالث ضخم الأنف كزميله، لكنَّه أقرع.

"لم يهاجمني ضبع، ولو صادفتُ جالا صغيرة لكنتُ الآن جثة محمولة على الأكتاف، ولكان من الصعب عليك أيُّها الأفرع أن تزخرف أذنيَّ بنصائحك العظيمة. ما رأيته بحقّ هو طفلة عمرها لا يتجاوز العشر سنوات، تلبس الخيش وتنظر إليَّ فأخافتني أكثر من ضبع وأقلَّ من جالا! فلتصدِّقوني، أحتاج الكذب على زوجتي لا عليكم!"

مضت بضعة أشهر على تلك "الخُرافة" التي انتشرت بين الصيَّادين أولًا ثمَّ في كلِّ أجينا، وأزيحت مؤخَّرًا من الذاكرة. ازاحها خبر المارد الرُّؤاس الذي ينام معلَّقًا بين السماء والأرض ويحمل حربة ضخمة لها رأس صوانيٌّ مُستَدِق، وله - وفقَ الحطَّاب - أنياب علويَّة. بُعثت "خُرافة" الصيَّاد عن الطفلة ثانية في أحاديث الناس بعد أن صادفها أمار ثانية هذا اليوم في البراري القريبة من مملكة أور. راح

[29] الجالا: كائنات مرعبة تخرج من الأسفل العظيم (عالم الموتى).

أهل البلدة يتساءلون إن كانا - الرجل المارد والطفلة لابسة الخيش - ليسا سوى صورتين مختلفتَين لتحوُّلات كبير الجالا[30].

في ليالي الصيد والرَّعي جعل الحديث عن الطفلةِ لابسة الخيش، والرجلِ الذي له أنياب معقوفه، ونمتارَ، ليلَ أجينا أكثر ظلمة من ذي قبل، وكأحراس الأسفل العظيم انتشر الرُّعب في بيوت الناس. مع كلِّ صباح جديد صارت تسري إشاعة جديدة، أو تستَعاد قصَّة قديمة، أو تُختَلق حادثة عن مثلَّث الرُّعب هذا، فكم من حكاية نُسِجت، وكم من إشاعة أشيعت، وكم من كذبة قيلت حوله، وزاد أن مضى كلُّ مُخبر يحذف مما يسمَع، ويضيف عندما يُخبِر. صار مثلث الرُّعب مادة خصبة لمزيد من القصَص والإشاعات والبطولات والمخاوف التي لا غور لها.

جلست كاهنات الخصب في ساحة الدالية ينتظرن الزبائن "الأتقياء". علَّقت ننميا، وهي كاهنة خصب في عقدها الثالث، وصديقة جارة لروقيا:

"أُصَدِّق ما قاله أمار. قالت أمي بأنَّنا كنَّا نستَصلِح أرضًا في البراري البعيدة، قبل عشرين عامًا منحَنا الإيانا قطعة الأرض تلك على أن نقدِّم نصف غلَّتها للمعبد، فلم نكن نملك أرضًا آنذاك. ذهبَت أمي إلى أرضنا تحمل زوَّادة فيها طعام، وكان النهار قد أشمس فنالَ منها الحَرُّ والتعب، مالت عن الطريق لتستريح في ظلِّ شجرة صَفصاف، قالت أمي قليلًا فتراءت لها في قيلولتها طفلة تلبس الخيش وتحمل قربة ماء وتقول كلامًا خفيًا. أفاقت أمي ووجدت القربة قربها، لكنَّها لم ترَ الطفلة أبدًا."

[30] كبير الجالا: نمتار، وزير الموت.

"قبل عشرين عامًا؟ كيف لا تزال طفلة إن كانت هي من قدَّمت الماء لأمك؟ كما أنَّ أمك لم ترها أصلًا!" تساءلت روقيا بجديَّة.

"إلَّا إن كانت جالا صغيرة." علَّقت كاهنة تجلس على المقعد المُقابل.

"آهٍ، سقط قلبي. قولي إنَّ الطفلة هي ابنة الرجل - الوحش، أو حتى الشيطانة ليليث، أمَّا أن تكون جالا صغيرة! لن أجرؤ على العودة لبيتي وحيدة! ولا أظنُّ أنني سأنام الليلة." علَّقت كاهنة خصْب حديثة السِنّ وهي تربط الخيط الأزرق على جبينها.

شغل الحديث عقل روقيا أكثر من أيِّ كاهنة أخرى، ذلك أنَّها كاهنة تؤمن بالمعجزات وتؤمن أنَّ المعجزات لن تستثني أجينا. مضت إلى البيت برفقة ننميا:

"أراكِ مشغولة البال؟ هل حدث شيء؟"

"لا يا ننميا، أفكِّر فيما قالته أمك."

"ما قالته أمي؟ حسنًا، سأخبرك بما ظننته: أنَّ حطَّابًا أو راعيًا وضع القربة هناك قبل وصول أمي، وذهب للصيد في مكان قريب أو للاحتطاب في أراضي البرِّ، ولكنَّ أمي لم تنتبه لوجود القربة قبل قيلولتها، وعندما أفاقت دفعها عطشها لتمحيص النظر حولها فرأت القربة، واختلط ما رأته في الحلم بقربة جلد! ذلك ما اعتقدته سابقًا. أما الآن، بعد عقدين، ها هي الطفلة تظهر ثانية، لصيَّاد هذه المرَّة. لكنَّها لا زالت طفلة أليس ذلك غريبًا يا روقيا؟"

"هذا ما أفكِّر فيه. أنَّ شيئًا ما يحدث في أجينا، لتحفظنا السماء! أدعو أن يكون ظهورها بشارة خير ومعجزة، لا نذير شؤم."

عندما وصلت إلى بيتها دعَت ننميا لتناول العشاء معها، وكانت "الخالة" وضعت الطعام على حصيرة الكتَّان في الباحة الأماميَّة. ثلاثتهنَّ جلسنَ بعد أن غسلن أيديهنَّ، وكانت زايا تحمل إبريق الماء ثمَّ غسلت يديها وجلست إلى جانب أمها، تناولت الخالة رغيفًا من الخبز المسطَّح المخبوز على الحَجر الساخن، ناولته لننميا:

"كُلي كثيرًا يا ابنتي، لا بدَّ أنك لم تجدي وقتًا لتناول الطعام في الإيجينا. زايا صُبّي للضيفة من حساء اللِّفت."

"سآكلُ كثيرًا ولن أفوّتَ طعامًا صنعَته الخالة بيديها."

"إليكِ يا جارتنا." ناولت زايا حساء اللِّفت لننميا وقرَّبت لها طبق سلطة من الخِيار والشمندر، وآخر من هريس الباذنجان "جونة! تعالي هنا، هل تحبين الباذنجان؟ ها؟ جرّبي!"

"هل سمعتِ يا خالة عن الطفلة التي ظهرت لأمار في البراري؟"

"آه، تلك الطفلة! سمعتُ عنها الكثير مذ كنت أنا طفلة أيضًا!"

"ماذا سمعتِ يا أمي؟" سألت روقيا.

"لا أذكر كثيرًا يا ابنتي، كنت طفلة أيامها، ولم أعد أذكر الكثير."

"أخبرينا بما تتذكرين يا خالة، إنَّ أمر هذه الطفلة يُحيّرنا جميعًا."

أطرقت الخالة:

"عندما كنت طفلة، وكانت أجينا قرية صغيرة أيامها، جاءت عرَّافة وأقامت قرب سافلة النهر، أقامت في كوخ لبضعة أيام فقط، سمِع الناس عنها فذهبوا يستطلعون طالعهم. كان كلُّ من يذهب يدفع لها رغيفي خبز أو بيضتين، وذهبتُ

وقتها مع أمي أحمل بيضتين مسلوقتين. لا أذكر شيئًا ممَّا قالته العرَّافة آنذاك ولكنَّني لن أنسى أبدًا الخطوط الخضراء على ذقنها ولا رنينَ الأساور الفضَّة."

"وماذا قالت عن الطفلة يا أمي؟"

"لم أعرف إن كانت هي التي قالت أمْ الناس - زايا اذهبي يا ابنتي واحضِري للضيفة كأس ماء - آه، قيل بأنَّ العَرَّافة تحدَّثت عن طفلة ستظهر في حقل القصب، تلبس الخيش وتأكل من رزق السماء، لا تقترب منها الخنازير ولا تقرَبها وحوش البرّ."

"ما الذي يعنيه أن تظهر في حقل القصب يا خالة؟ هل قالت العرَّافة شيئًا عن ذلك؟"

"كنت طفلة يا ابنتي ولم أفهم شيئًا ممَّا قيل، هذا كلُّ ما أذكره. قبل شهر مرَّت ببيتنا امرأة قالت بأنَّ اسمها جيلا وتملك حانة في أوروك، كانت برفقة تاجر أصداف وأواني، كان اسمه...اسمه! المهم، قدَّمت لهما الحليب وتعارفنا. أخبرتني أنَّها جاءت تبحث عن غريب يظهر في حقل قصب ويصرخ في البراري! لا أظنُّ أنَّها مجنونة، ربَّما كانت حزينة لسبب ما، ولكنَّها كانت تقول كلامًا غريبًا!"

"آهٍ، ما الذي يحدث في أجينا! طفلة تلبس الخيش، ورجل مارد، وجالا صغيرة!" علَّقت ننميا.

"بحقِّ السماء! هل تبحث صاحبة الحانة عن غريب يدلُّها على دلمون؟"

فغرَ الجميع أفواههم، لم يفهموا من كلام روقيا شيئًا له علاقة بكلِّ الحديث الذي يدور! تذكر روقيا أنَّ تاجرًا قال لها مرَّة - في سياق حديث عابر - بأنَّ الناس في كيمِت، الأرض التي يعبرها النهر العظيم، يعتقدون أنَّ الخالدين يعيشون في حقل قصب، يقولون - والكلام للتاجر - بأنَّ الحقل أشجاره مثمرة وغاباته

شواسع وأنهاره صافية عظيمة. فكَّرت روقيا "هل ذلك الغريب إشارة غيب من أرض دلمون - مرتع الآلهة؟ حيث لا نعيقَ غراب، ولا هُناد بومة، ولا عجز، ولا شيخوخة، ولا مرض" وراحت تفسِّر كلامها لزايا وجارتها، ابتسَمت زايا:

"آهٍ يا أختي! لستِ غريبة فلماذا تتحدثين حديث غرباء؟"

أمَّا الخالة فكانت تشغل نفسها بنَظم قلادة من أصداف البحر المرّ، اشترتها من ذلك التاجر من أوروك، وتتمتم:

"أكلَك فراشة مغمَّسة بنقطة عَسَل
لبسَك خيش ووبَر جْمال
وصوت بيندَه في البراري.."[31]

*****

انطلقوا، شامات والأوريكالو إلى أوروك مع قرن الشمس ورافقهم اثنان من أوريكالو الإيجينا. وصلوا مساء إلى الرصيف الأبيض في كولَّاب وعبَروا بوابة الإيجولا وصولًا إلى الإيانا. على غير العادة التي تقضي باصطحاب كاهنات الخصب إلى مبنى الدَّير الملحق بالمَجمع المقدَّس، اصطحبت كاهنة سُوكي[32] ضيفة

[31] حسين البرغوثي، أغنية "جاي الحَمام": أكلكْ فرَاشة مغمَّسة بنقطة عَسَل/ لبسَك خيش ووَبَر جْمال/ وصوت بيندَه في البراري/ وسِّعوا الطرقات لغُزلان المَحَبّة والسَّلام/ جاي الحَمام من الجَبَل/ جاي الحَمام.

[32] كاهنات السوكي: طبقة من الكاهنات الخادمات.

الإيانا إلى بيت سينا، وهي كاهنة ناديتو[33] لا يبعد بيتها كثيرًا عن المَجمع. ركعت الضيفة حتى لامست أسنانها الأرضيَّة ثمَّ وقفت وخفضت رأسها أمام صاحبة البيت الجميلة بشكل لا يصدَّق، وكأنَّها خلقَت لتكون جميلة فحسب:

"عساكِ بخير يا سيّدتي."

كانت سينا ترتدي ثياب الكهانة، ويُرى الشعار المقدَّس على الجانب الأيمن من صدرها، وهو عبارة عن تطريز بخيوط فضيَّة على شكل أربعة مسامير متقاطعة ترسم نجمة ثُمانية الأشعَّة، بأطراف أربعة مدبَّبة يقابلها أربعة أطراف حادَّة ويشير إلى قدسيَّة من يرتديه. سينا في الرابعة والعشرين من عمرها، أكبر من شامات بسنة واحدة. كانت سينا تتفحَّص مجموعة فتيات اصطفَفْنَ أمامها، سألت كلَّ واحدة منهُنَّ بضعة أسئلة، وطلبت أن تتقدَّم من تلفظ اسمها خطوة واحدة لتلتحِق بالخدمة في الإيانا، أمَّا من لم يُذكر اسمها فستعمل في الأراضي الزراعيَّة المحبوسَة لربَّة الأرض إنانا. واحدة من الفتيات كانت ذاتَ ملامح مختلفة عن الأخريات، تأمَّلت سينا عينيَّ الفتاة: غير مائلتين إلى الوراء خلافًا لأعين الجنوب، وفمها واسع:

"ما اسمك؟" سألت الفتاةَ ذاتَ الملامح المختلفة.

"أشاري يا سيّدتي."

"من الجبال الشماليَّة[34]؟"

[33] كاهنات الناديتو: طبقة الكاهنات العذارى.

[34] المقصود هنا شمال العراق.

"نعم يا سيّدتي، من قرية السّيرانو."

"لماذا هجرتِ قريتك إلى هنا؟"

"لم أهجرها طوعًا، بل لخراب أصابها وجعلها مسكنًا للطيور الكئيبة."

"تقدَّمي خطوة."

ثم أشارت لشامات فتقدَّمت منحنية الرأس، صامتة، مرتبكة:
"أنت كاهنة الخصب من أجينا، أليس كذلك؟ حسنًا، غدًا في الصباح الباكر ستقابلين السيّدة العليا، أمَّا الآن فاغتسلي وتناولي العشاء ثم اذهبي للنوم."

انحنت شامات ثانية، وبعد العشاء أشارت لها السُوكي فتبعَتها إلى غرفة نوم خصِّصَت لها. هدأ قلبها المضطرب، استقبال كهذا واستضافة في بيت - قصر، حال بيوت كاهنات الناديتو بشكل عام، وهنَّ كاهنات ينحدرنَ من عائلات ثريَّة أو من العائلات الملكيَّة، ومعاملتها بهذه الطريقة، كل ذلك لا يترك سببًا يدعو للقلق أو الخوف. تدفَّقَ سيل الاحتمالات من جديد، الاحتمالات الجميلة هذه المرَّة، وهذا ما حدث صباح اليوم التالي على الأقل: اثنتان من كاهنات السُوكي أشرَفتا على اغتسالها صباحًا وصففْنَ شَعرها على هيئة هرم مدرَّج، وكحَّلنَ عينيها وألبَسنها ثيابًا فاخرة وحِليًّا، ثم وضعنَ عليها شارتها الدَّالة على وظيفتها ورتبتها الدينية: الخيط الأزرق المجدول.

أمام البيت انتظرتهنَّ عربة الإيانا يحرسها الأوريكالو الذين رافقوها من أجينا. ترجَّلتا في ساحة المعبد الأولى وعبرتا السَّاحة الثانية وصولًا إلى السَّاحة الثالثة، صعدتا سُلَّمَ السماء المُرتقي إلى الإيكيبار - المزار المقدَّس: غرفة واسعة مشيَّدة أعلى المبنى الخاص بباب من الأزرق الغامق مصَفَّح بالبرونز، ويصل ارتفاعه إلى

عشرات الأذرع، على جانبيه عمودان حجريَّان في أعلى كلٍّ منهما تاج على شكل سَعف نخل ثُمانيَّة الأوراق. تقيم السيّدة العليا في المزار وحدها، ويُحرَّم على ذكر دخولهما - أيْ الغرفة والسيّدة - إلَّا في يوم واحد فقط هو يوم الزَّواج المقدَّس، ولرجل واحد فقط هو العريس المختار، ولليلة واحدة فقط. كان من المعتاد - وليس من الملزم دينيًا - أن يكون الملك هو العريس، لكن من الملزم أن تكون العروس هي الكاهنة العليا (الإنتو) أو واحدة من كاهناتِ الناديتو التي تُختار منهُنَّ السيّدة العليا.

فتحت السُوكي الباب وأشارت لشامات بالمثول بين يدي ننمادا، وقبل أن تخطو إلى الداخل ذكَّرتها أنَّ عليها البقاء في وضعية السُّجود إلى أن يُؤذنَ لها بالوقوف. دخلت وسجدت ولامسَت أسنانُها الأماميَّة فِراشَ الأرضيَّة، سجَدت مطولًا حتى أُذِنَ لها فوقفت:

"عساكِ بخير يا سيّدتنا المقدَّسة." وثبَّتت عينها في موضع السُّجود.

لا لم ترَ جلالًا كهذا من قبل، عندما وقع بصرها على ننمادا ارتجفت كلُّ شعرة في جسمها، أنكرت شفتاها وظيفتهما أمام سماء تلبسُ صندلًا أحمرًا. ممشوقة القوام كفتاة تقضي وقتها في السباحة كانت ننمادا، حنطيَّة البَشرة، مربوعة القامة، سهلة الخدَّين، هادئة الملامح، ويكشف ارتفاع ثوبها على مستوى صدرها عن نهدين كاعبين صلبين، شَعرها فاحمٌ مرسلٌ أقلُّه ومُثنَّى أكثره، وجبينها مسوَّرٌ بأوراق الغار الذَّهَب، أمَّا ثيابها فخلاصة تراث البلد. لا يكاد يخلو موضع في جسمها من الزِّينة: أربعة أقراط متفاوتة الطول، حلقة ذهَب في أرنبة أنفها،

قلادتان فضيَّتان، قلادة ثالثة تحمل الختمَ المقدَّس، أفاعٍ ذهبيَّة ملتفة على رسغيها، حزام جلد مُطعَّم بالأحجار الكريمة، وخلاخل ناعمة.

خلعت سينا الخيط الأزرق عن جبين شامات ووضعته برفق في إناء برونزيّ مشتعِل بأعواد العَرعر. تراجعت بضع خطوات وكسَرت نظرها ثانية. وضعت كاهنة السُوكي حبوب الحِرمل والمُرِّ في المبخرة، تكاثفَ دخان البخور حتى بدَت أصابع ننمادا كحَمامات تحوم على محيط دوائر لا تُرى، تعلو وتدنو على إيقاع دفوف لها صوت سقطِ المطر، رتَّلت كلمات فحلَّقت التراتيلُ كفراشات ملَّونة في ضباب معَطَّر. لم تفهم شامات من التراتيل سوى أنَّها كلمات عتيقة مبهمة مزوَّقة كسَجع الكهَّان، مقدَّسة كحَمامة الطوفان، ترفرف من الشِّفاه الأعلى مكانة في سومر كلِّها.

*****

قبل أن تُخترع مزولة الوقت، وقبل أن يقسَّم الزمن إلى سنوات وأشهر وساعات مضاعفة، عبرت إنانا - كاهنة السماء والأرض، التي ستصير ربَّة الأرض لثلاثة آلاف سنة قادمة، عبرت بلاد سومر تتأمَّل المدن الدارسَة، المدن الخمس التي بُنيَت في الأرض النقيَّة فجاءها الطوفان العظيم وجعلها أثرًا بعد عين، مرَّت على مدينة إريدو أولًا قادمة من البحر السفليّ، ثمَّ على مدن سيبار وشروباك وبادتبيرا[35]، تفقَّدت معابدها وقرَّبت سلال السمَك للأب الطيّب إنكي، سيّد المياه العميقة. عادت بعد ذلك نحو الجنوب، إلى تلك البلدة الصغيرة من بلاد ما بعد

[35] مدن إويدو، سيبار، شروباك، بادتبيرا وأوروك هي مدن ما قبل الطُوفان العظيم في سومر- جنوب العراق.

الطوفان: أوروك. أوروك الصغيرة بعدد سكانها الذي لا يكفي ليدرِّب طفلاً يتعلَّم على العدِّ، ببساتين وأقنية متواضعة وحيّ كولّاب القديم، وأمَّا سدودها فتبدو كضفيرة تحاول عبثًا اعتراض نهر الفرات العظيم، حتى أنَّ بيتها هي نفسها - الإيانا - ليس سوى بيتٍ متواضع كأنَّه بيتُ وصيفة أو فلّاحة، أمَّا رؤوس الماشية فقليلة في حظائر حبيب صِباها الرَّاعي[36]، وكأنَّها حظائر لتجربة استئلاف الماشية لا أكثر، لذا قرَّرَت لأوروك قدرًا غير الذي رأت، ومصيرًا غير الذي خُتِم، لذلك زارت معبد الجبل [37].

دخلت بابًا خفيًّا إلى غرفة الأسرار حيث يُحفظ لوح المصائر، ولم يجرؤ الوضيع آنزو - حارسُ الألواح - على اعتراض طريقها، رمى نفسه على وجهه عند أقدامها ولم يحرِّك شفاهه الملتوية بكلمة. أرادت أخذ لوح المصائر من مكان لوح المصائر لترسمَ القدَر الجديد لبلدتها الصغيرة آنذاك، لكنَّ الكلمة الحارسة استدارت تمنع يدها من لمسه والعبث به. رفعت يدها إلى مستوى صدرها، وفتحت فمها بالكلام:

"ليكن عاليًا مجدك يا أوروك. وأنا إنانا - أقسمُ بأبراج السماء وما فوقها، وأوتاد الأرض وما تحتها، لأتينَّكِ بنواميس الحضارة. انتظري مجدك القادم وأكتبي بيدي: خالد هو اسمك ومطهَّر بزيت النخيل، وحيث الأسماء الخالدة سأحفر لك اسمًا في خشب الأرز اللائق يا أوروك، يا بلدتي التي أحبُّ."

---

[36] دموزي (تموز عند البابليين)، إله الحياة السارية في الحيوان والنبات، ويلّقب بسيّد الحظائر.

[37] معبد الجبل (الإيكور) هو معبد إنليل في مدينة نيبور (نفّر).

رضيَت بما عزَمت عليه من رسم قدَر جديد لبلدتها الصغيرة آنذاك، قبل أن تصير هي نفسها ملكة السماء وربَّة الأرض، أرادت أن تُصيِّر هذه البلدة مدينة كبيرة ثمَّ عاصمة لها فسُرَّة للأرض. راحت تتفقَّد ضفاف الفرات، مشت غير ناعلة على ضفَتيه وتحسَّسَت رطوبة طينه ثمَّ جلسَت تتخيَّل المدينة التي تريد. أمَّا وصيفاتها فكنَّ نشرنَ شباكهنَّ يجمعنَ أسماك السَّلمون والشمَّوط وأفاعي النهر والأخطبوط في سلال قصَب تقدِمة للأب الطيّب إنكي، مالِك نواميس الحضارة - ألواح المعرفة والحِكمة.

فتحت ننشوبور شفتيها تتساءل:

"ولماذا كلُّ هذه التقدِمات لمعبد الأعماق[38]؟"

"لسيّدتك اصغي يا وصيفتي الطيّبة: اذهبي من فورك إلى شروباك وانتقي من النبيذ المعتَّق أعتقه، ومن الخمر أبيضه وأحمره، واحضِري معك العربات التي تجرُّها عفاريت العاصفة لحَمل التقدِمات إلى القصر الأزرق."

غادرت الوصيفة الطيّبة من فورها إلى شروباك، نفَّذت الأوامر وعادت بعفاريت الجرّ والعربات، وكانت إنانا قد تبرَّجت وتقرَّطت ثمَّ ولَّت وجهها إلى إريدو تتقدَّمها وصيفتُها وتتبعها كاهناتها المنذورات. مضت إلى إريدو المدينة المسكينة التي حطَّمها الطوفان العظيم، ولولا نواميس الحضارة وقلب إنكي الحكيم لصَارت خرائبَ تسكنُها الرياح، ومسكنًا للأشباح، ومرتعًا للجالا الصغيرات. حينما وصلنَ بيت

[38] معبد الأعماق، أو معبد المياه العميقة، هو معبد إنكي في مدينة إريدو، ومنها جلبت إنانا نواميس الحضارة. وهي إشارة ضمنية إلى أن أصل الحضارة يرجع إلى أمكنة المياه العذبة، وأن المرأة هي من بدأت الثورة الزراعية.

الأمواج قرَّبنَ القرابين وقدَّمنَ التقدِمات وأحرقنَ البخور، ثمَّ عبرنَ المرفأ الأول فأوصلهنَّ إلى المرفأ الذي يليه، وأوصلهنَّ التالي إلى سرَب تحت الأرض مُضيء فبوَّابة ذات ألواح ومغاليق. ما أن رأى أحراس البوابَّة إنانا حتى سارعوا يفتحونَ البوَّابة على مصراعيها ويقبِّلونَ أطرافَ ثوبها وخاتمَ العذراء. خطَت وخطَت ننشوبور خلفها والمنذورات، وبعد مسير ساعة مضاعفة وجدنَ سُلَّمًا يؤدي إلى سرَب فنزلنَه، وعبرنَ السرَب التالي فأوصلهُنَّ إلى البوَّابة التالية، وفعل أحراسُ البوَّابة الثانية ما كان فعله أحراسُ البوَّابة الأولى.

أحضر بحَّارة الأعماق زورق السماء فأبحرنَ في نهر واسع مجراه، يعبر مسارًا داخل بناء عاليَ السَّقف مقبَّب بالموج، جدرانه من اللازوَرد المزَجَّج. أقواس السَّقف عاقدة شبه قوس قزح جَمالًا وروعةً وعلُوًا وبناء، أمَّا على الضفَّتين فالأشجار سامقة وارفة وكأنَّها أعمدة تسند الأفقَ المجوَّف. أبحر الزورق في النهر الصافي الذي تحت البلاد عابرًا خلال الأقواس المضاءة بشموس معلقة كزَهر الجُلَّنار، مرَّ عبر قوس الموج إلى قوس موج يليه حتى وصل بوَّابة المدِّ والجَزر. ترَجَّلت إنانا ونضَت عن نفسها ملابسها، اغتسلت في الماء الصافي الذي تحت البلاد وكذلك فعلت حاشيتُها، استحممْنَ ولبسنَ، ثمَّ غير ناعلات ارتقينَ بضع درجات، كاملات الاحتشام غير متبرِّجات، ووصلنَ إلى السَّاح الرئيس لمياه الأعماق فتراءى لهنَّ القصرُ الأزرق المشيَّد في أعالي الموج على بُعد زمن من الإبحار، عالٍ سقفُه وموجُه عالٍ ومن الأزرق السماويّ جدرانه المزجَّجَة، ومن الأزرق الداكن عتباتُه المُحكمة، فأبحرنَ يقصدنه لألف سنة أو نحو ألف سنة، أكثر كثيرًا ربَّما أبحرنَ، أو أبحرنَ أقلَّ قليلًا، فقد كان القصر يدنو ويبتعد، يعلو ويهبط، كالموج غير ثابت في موضعه وكالزمن الذي هناك يطول ويقصُر تبعًا لموقعه.

عند مدخل الآبسو استقبلهنَّ كهنة - أسماك، ولقِّبوا بذلك لأنَّ عباءاتهم الكهنوتية مطرَّزة بالحراشف، ويتدلَّى من على أكتافهم ما يشبه الزعانف، كذلك الكاهنات - الأسماك وبشَعر طويل مجدَّل كذيل السمَك. أُذِنَ لإنانا ووصيفتها بالدخول فدخلن. استقبلهنَّ إيسود - وزير إنكي - وانحنى وقدَّم فروض الاحترام لهنَّ، ونفَّذ أوامر سيّده فقدَّم كعك الزبدة لهنَّ، ولهنَّ صَبَّ الماء العذب. وعند الأسد الذي من زعانف الأسماك مخالبُه رشفت إنانا كأس النبيذ المعتَّق، ثمَّ تابع ثلاثتهم - إيسود وإنانا وننشوبور- سيرهم إلى صالة المياه العذبة، وعلى طاولة السماء انتظرت إنانا مضيفها.

أمَّا ننشوبور فراحت تُمضي أوامر سيّدتها، بحثت عن غرفة الأسرار حيث نواميس الحضارة مخبأة فلم تعثر على مكانها، بل عثر إيسود عليها - أيْ على ننشوبور - ومنعها من التسكُّع في القصر، فأوترت على عجَل شفتيها ورمته بسهام طائشة وأصابت كبده وطوَّعت قلبه، فسرَح يريها معالم القصْر، وطلبت منه أن يصبَّ لها الشراب القويّ وشربا حتى فقدَ هو رشده.

كان الأب الطيّب إنكي يتفقَّد أحوال مياه الجوف وقتئذ وختمَ تجواله بتفقَّد نواميس الحضارة، مسحها بالماء العذب وأودعها في مكانها الخفيّ ثانية ورصدها بالكلمة الحارسة. ثمَّ سار إلى حيث تنتظره ابنته إنانا التي يحبُّ. انحنت لمَّا رأته وردَّ التحيَّة بمثلها، وقبَّل خاتم العذراء:

"كبرتِ يا ابنتي، ترجّب بك المياه العذبة والأنهار الصَّافية. اتَّخذي مجلسًا قربي، هنا تعالي اجلسي، وقولي يا جميلة: لمَ أتعبت نفسك وجئت في سفَر مُضْنٍ إلى

هنا؟ فإن كان لمطلب لكِ ما تطلبين، وإن كان للَهو ففرحك عيد إريدو وزينتها، ونحن- هنا في بيت أبيك - نفرَح لفرحك، ونطرب لطربك، ونحتفي بزيارتك."

"هي زيارة للَّهو والسباحة يا أبي، ولأقدِّم فروض الاحترام لك، وأقصَّ عليك ما حلَّ في البلاد من أثر الطوفان العظيم وما حلَّ بي.[39]"

في هذه الأثناء تركت ننشوبور إيسود ثملًا راقدًا، وراحت تفتِّش عن غرفة الأسرار ثانية، بينما تابعت إنانا فعل ما جاءت لأجله، فتحت فمها بالكلام تقول:

"أيْ أبي الطيّب إنكي، واسع الحكمة أنت ورأس المعرفة، مبتكر نواميس الحضارة وحافظها من الأيدي العابثة. أيْ أبي، يا من بفضلك نجا شعبي من الإبادة ثلاث مرَّات، أنت ترى بعينيك نرجال الذي لا قلب له يرمى البلاد ببَنات النهار والمخاوف والظنون، فيطلق على البشر أوبئة سبعة ووباء الطاعون، يخرِّب هنا ويدمر هناك، ولا يترك لهم مكانًا يستقرون فيه إلَّا ونقضَه، ولا رزقتهم السماء بخير إلَّا عاد وهدمه، فإلى متى كُتِبَت على الإنسان الآلام يا أبي؟ لمَ لا تعطيني من ألواحك ما يصقل معرفة الإنسان ويثقِّف عقله، ليبني مدنًا كبيرة ويعلي أسوارًا منيعة ويتعلَّم فنون الحضارة: نواميس الدين والعبادة، علوم الطبيعة والروح. فتعينه المعرفة على بناء حضارة تفتخر أنت بها، ويعينه تحَضُّره على مواجهة الكوارث والأوبئة فتضعُف قبضة نرجال عليهم، ويجد البشريُّ له مستَقرًا آمنًا من بعد ضياع مؤلم مزمن."

[39] ما حلَّ بي: بما أن إنانا تمثل الطبيعة، فهي تشير إلى ما فعله الطوفان العظيم بجسدها الطبيعة.

وكانت قدَّرت - قبل هذه الزيارة - أن تصارح إنكي بمشيئة قلبها، وعزمها جعل أوروك الصغيرة عاصمتها، وأن تُصَيِّرها سُرَّةَ الأرض ومعلِّمة أولى للبشر، لكنَّها قدَّرت كذلك أنَّ الأب الطيّب لن يعطي البشر ألواح الحكمة والمعرفة بسهولة. فتح قلبه بالكلام الطيّب يقول:

"أيْ إنانا يا ابنتي، إن منحتُ البشر المعرفة أخاف انقلابهم على أنفسهم، وارتداد بأسهم عليهم، فالألواح فيها المعرفة الخَيِّرة والشرِّيرة فإن ملكوا أمرهم تملَّكوا سلاحًا وقتلوا بعضهم البعض، وسيعلو ضحكهم قليلًا ثمَّ كثيرًا سيعلو بكاؤهم. وقد نجوا مرات ثلاث من الفناء الكامل وأخرها الطوفان الشامل، فإن أعادوا الكرَّة ولم يفيئوا - ولن يفيئوا - عن قبيح أفعالهم ستكون رابعة الذنوب آخرها، ورابعة الفناء لا منجاة منها لأحد منهم."

"حكيم أنت يا أبي وواسع الحِكمة، ألتمِس عذرًا لطيشي وجهلي وثقتي العمياء بالبشر."

أطلَّت ننشوبور من الباب الموارب وأومأت لسيّدتها تخبرها بأنَّها اكتشفت مكان غرفة الأسرار، لكنَّها لا تَقدر على كسر الختم وإبطال قوس الكلمة الحارسة، وبلا شفاه همسَت تدلُّ إنانا على المكان ثمَّ سارعت عائدة إلى إيسود قبل أن يصحو فتصحو فيه الشكوك والظنون.

تناولت إنانا جرَّة الشراب القويّ، وأردفت:

"جئت أطلب فرحًا في حضرتك، ولهوًا في ساح مجدك، وجرعة من عظيم حكمتك، وأشرب معك الشراب القويّ فتكون ذكرى عزيزة على قلبي يا أبي."

صَبَّت له نصفَ الجرَّة، ولنفسها صَبَّت كأسًا صغيرًا وجرعته دفعة واحدة فجرع الأب نصفَ الجرَّة دفعة واحدة.

"لا عِلمَ لي كيف نجا الإنسان ثلاث مرات من الفناء الكامل. قصَّ عليَّ يا أبي الحكاية من البداية، كيف مددتَ لشعبي يدًا رحيمة ولسانَ حكمة؟ احكِ لي الحكاية حتى النهاية فأتعلَّم من حكمتك."

وصَبَّت له نصفَ الجرَّة الآخر وتبادلت معه الأنخاب بأكواب أوراش، وأمرَت كاهنة - سمكة بإحضار جرَّتَين إضافيتين. جرع الأب الطيّب الشراب القويّ وراح يحكي حكاية أولى الذنوب:

"خُلقَ البشريُّ من طين ممزوج بدَم إله ليحمل عبء العمل عن العُلا العظيم، وبعد ألف سنة أو يزيد زاد عدد البشر وعَلا ضجيجهم في النهار فأزعجوا نوم القاسي إنليل، ولم تهدأ في الليل ضوضاؤهم فأقلقوا صحوَ القاسي إنليل، فأمرَ تابعه نرجال أن يضرب بسلاحه في الحال ولا يبقي على أحد منهم، ولا يذر ديَّارًا في ديار ولا ماضٍ في قِفار، فمضى نرجال ينفِّذ الأوامر. وكان من بين البشر عبد صالح اسمه زيوسودرا بن أوبارا[40] يقدِّم القرابين، ويشيِّد المعابد، ويصغي لتعاليم السماء ويلتزم حدودها، ورأى بأمِّ عينه كيف يعذب نرجال البشر بمُرِّ العذاب فجاء إليَّ على ضفَّة النهر متسائلًا مستنكرًا "إلى متى ستبقى مقدَّرة على البشر الآلام أيُّها الأب الطيّب؟" أشفقت عليه وسمِعت شكواه فأجبته بلا شفاه، وبلا آذان سمِع الجواب "أدعُ شعبك لانتفاضة يا ولدي، لا تبجِّلوا آلهتكم إلى أن تكفَّ شرَّها عنكم، لا تشعلوا محرقات القرابين لها ولا تقدِّموا التقدِمات، وتوجَّهوا

[40] بطلُ الطُوفان العظيم.: اتراحاسس السومريّ، اوتونابشتيم البابلي.

بالدعاء إلى نرجال فقط، قدِّموا له الخبز المحمَّص لعلَّه يخجل من فعل طاعونه إذا قدِّم له الخبز المحمَّص، قدِّموا له التيسَ الوسيط لعلَّه يخجل من فعل سلاحه إذا قدِّم له التيس الوسيط." ففعل ابن أوبارا، ودعا عُليَّة قومه إلى بيته وأعلنوا انتفاضة من حَرمه وتوقفوا عن الصَّلاة وبناء المعابد، وخبزوا الخبز وقدَّموه لنرجال، وقدَّموا له التيسَ الوسيط فأخجلته التقدِمات وأغمد طاعونه."

صبَّت له نصفَ جرَّة أخرى، وصبَّت لنفسها نصفَ كأس من كؤوس أوراشَ الصغيرة.

"كم أنت حكيم وطيّب القلب يا أبي، حفِظتَ للبشر وجودهم. احكِ لي كيف نجا الذين تحمُّهم من الفناء الثاني؟ أكان إنليل هو من أمرَ فأشرع نرجال طاعونَه ونشر فئرانَه؟"

جرع الشراب القويّ، وفتح شفتيه يحكي حكاية الفناء الثاني:

"ثمَّ مرَّت ألف سنة أو يزيد، زاد عدد البشر وعَلا ضجيجهم ثانية وعلت ضوضاؤهم فكانت ثانية الذنوب. أفاقَ إنليل مغضِبًا وأرخى زمامَ غوغالانا - ثور السماء، فخار الثور ينقصُ الأرضَ من أطرافها: أرخَت الشمس قيظها، ونفثَت الصحراء موجها، وأمسكت الغيوم ودْقها، وقبضَت الأنهار فيضها. ضرَب البلاد فتوجَّعت كامرأة تجهضُ، وكشَاةٍ رجَلها وسَلخ جِلدها. على قرنيه حمل الصحراء إلى الحواضر وأوقع الكسْرَ بين الأضلاع والخواصر، وضرب بالألم على السواعد والمفاصل، وصيَّر الماء آسنًا عكراً كدراً والتربة بيضاء مالحة، فعَمَّ القحط وطالَ حتى نزَّ الشجر دمًا وصارت قلوب البشر ردمًا. وتوغَّل أكثر فشرب الأنهار وكشفَ عن أسِرَّتها، وقرضَ المراعي وكشفَ عن تربتها، وسَبا الحظائر كلَّها فلم يبقِ على

زرع ولا أبقى على ضرْع. عمَّ الجوع سنة ولسنة ثانية عمَّ السغَبُ، وفي السنة الثالثة عَلا وجوه الناس الجرَبُ، واحدودبت ظهورهم، وضعفت حيلتهم، وقلَّ حَيلهم. ثمَّ أتاهم كرَّة أخرى من جنوبهم وكرَّة غيرها عن شمالهم. أَعملَ حوافره في صحوهم ومنامهم، وواقعهم وخيالهم، ونطحَ بين المناحِر والصدور والقوافي والأرداف، فأوقع فيهم قتلًا شارفَ فيه على الإسراف.

جاء من المكان القصِيّ العبد الصالح ابن أوبارا يسعى ويهرول، ولقد شرَقت عيناه بودَقِها، ولقد انسلَّت ثيابه لكثرة رتقِها، رفع كلماته بالشكوى" أيَا أبي، إلى متى كُتِبَت على الإنسان الآلام؟ إلى متى هذا القهر الشامل والظلم الكامل؟" تأمَّل فتذكَّر نُصحي له من قبل ألف سنة أو يزيد فنادى عُليَّة قومه فتداعوا إلى بيته، وأعلنوا انتفاضة من حَرمِه: نبذوا نواميسَ السماء إلى أن أُنهكَ العُلا فلجَم الثور وشَدَّ سِفاره، وزجره وحرفَ مساره، وساقَه سَوقًا إلى الأسفل العظيم. لم يترك الثور خلفه سوى حفنة ناجين فقط ودمارًا لم نشهَد مثله قَطّ. لكنَّ الأب القاسي لم يُغمِد غضبَه ولا هدأ صخبُه، بل وصل الكارثة بكوارث مثلها وبيوت العزاء بأخرى غيرها.

وتوالت سُنون الجفاف العجاف، وما برح الطير الكئيب يعشعش في الحواضر والبوادي، وطائر الشرِّ يحتفي في المدن والنواحي. وفي سادس السنوات صارت الزَّوجة تُحاذِر أن تفتح بيتها لأمِّها خشية إسراف وإملاق، والأم لا تفتح لابنتها خشية نقص في الأملاك، حتى استيأس الناس أو كاد ينقطع بهم الأمل. وفي السنة السابعة اجتمع كبار العُلا وأعلنوا لإنليل عن رفضهم قراره ففاءَ عن فعله وكفَّ شِراره. وجاء الأرض أملٌ من بعد يأس، وغيثٌ من بعد جفاف، ووفرةٌ من بعد نُدرة، فتكاثر البشر مرَّة أخرى وعَلا ضجيجهم وعلت ضوضاؤهم."

رفعت إنانا نخبَ النجاة الثانية، وشربَ إنكي الشراب القويّ. دعاها للتجوال معه في الهواء الطلق، ذلك أنَّ ذهنه كان قد تشوَّش من أثر الشراب. سارا سويَّة ومن خلفهم الأسماك، عبروا ميناء إريدو والمرفأ الأزرق، وكان الميناء مزدحمًا بزوارق الصيَّادين لابِسي قبَّعات القصَب، وبالسِلال المليئة بالأسماك ملوَّنة وطازجة. تناول الأب بضعَ سِلال وأمر سمكة بتحضير أطباق من الشبُّوط المشويّ المتبَّل لضيوفه، ثمَّ تابعوا خطاهم إلى حقول الفلَّاحين، رأت جنَّات فيها من كلِّ شجر مثمر ونجم نافع، ومضت تتفقَّد الآبار التي تنزل إلى مياه الجوف العذبة.

كان مهندسو إريدو قد نصبوا أعمدة من أجذاع النخيل ووصلوا بينها بجذوع أخرى، ربطوا دلوًا وأدلوا دلوَهم، وما أن تأكَّد لهم الوصول إلى مياه الجوف حتى راح السُقاة يرفعون الماء، وشرع العبيد بحَفر أقنية الرَّي وينادون على الرُّعاة أن جَهِّزوا للماشية أحواض سقاية من الطابوق المشويّ.

فرحَت إنانا بما رأت وكان حسنًا ما رأت، وشربَت من شراب الساقية وكان عذبًا ما شربَت، وأمَّا الوصيفات فقطفنَ لها من ثمرات الرمَّان أحلاها وأوزنها، ومن التمور أسودها وأجودها، ومن الليمون أخضره وأصفره، ومن التِّين بواكيره وأواخره، ولقد سرَّها ما قطفنه، ورؤية أدغال المانغروف[41] تصدُّ مياه البحر الأسفل وتطبق على الفلاة، وتجود بالوفرة على قطعان الرُّعاة، سرَّها ما رأت فمضت تجول في المراعي برفقة الأب المحبِّ ووصيفتها ووزيره إيسود.

توقف الأب الطيّب ونادى على راعٍ يتَّجه إلى السَاقية:

[41] نوع من الشّجر يكثرُ في الأهوار الجنوبيّة للعراق.

"أيْ بنيَّ آما، تعال يا ولدي وقدِّم فروضَ الاحترام لإنانا." تقدَّم الشاب الرَّاعي وانحنى:

"ترحِّبُ بك مراعينا يا ابنة القمر، يرحِّبُ بك رعاة إريدو يا أخت الشمس.[42]"

همسَت ننشوبور في أذنها:

"هذا الشاب هو سيّد الرُّعاة، سيّد الحظائر المقدَّسة، اسمه آما أشوم جالانا. أمَّا في أوروك فنعرفه بلقبه لا باسمه "دموزي الرَّاعي"."

لم تنتبه إنانا لسيّد الحظائر المقدَّسة، اكتفت بتبادل الحديث مع الأب المحبِّ. اقترح دموزي على ننشوبور جولة في مراعيه وحظائره، فمشَت معه وفرحت وسعها لخضرة المراعي واتساعها، وعندما دنت من الحظائر وقفت بعيدًا، فهمَ دموزي ما لم تقُله: حظائره خصبة واسعة ولكنَّ حياته الخشنة تراها دون مكانتها هي الفتاة الجميلة، لمياء الشِّفاه، رقيقة الأنف، المتبرِّجة التي كانت ملكة الشرق يومًا، ملكة الشرق كلِّه، وصيفة هذا الزَّمان، وصيفة العالم كلِّه. فرحَت إنانا كثيرًا بحضارة إريدو، بشوارعها المبلَّطة، الزاقوراتِ التي لم تُبنَ بعد، مِزولة الوقت التي ستشيَّد على مدخل السوق، الحانات، نظام الريِّ الذي رأت، معبد العيون، وغرفة الأسرار، والبناء المشيَّد على شكل زعانف الأسماك[43] وغير ذلك الكثير ممَّا لم يعرفه البشر قبل إريدو. فتحت فمها تقول:

---

[42] إنانا إلهة الحبّ والخِصبِ والحرب. أبوها هو القمر (نانا)، وشقيقها الشمس (أوتو).

[43] هذا النمط من البناء لا زال موجودًا في جنوب العراق.

"كم أنت حكيم يا أبي وطيّب، لنستظلْ في ظلال الفلّاحين ونرى عن قرب عمل البشر الطيّبين."

مشَت أمامه ومشَى أمامها، استظلَّت واستظلَّ، قطفَت من زهور الفُلِّ زهرةَ فُلّ، عطَّرت رئتيها وسألت بأنفاس معطَّرة:

"قصَّ عليَّ كلَّ الحكاية يا أبي: كيف نجا البشر من الفناء الثالث، وماذا فعل الطوفان بي؟"

فتح إنكي فمه يقصُّ عليها قصَّة الفناء الثالث: قصَّة الطوفان العظيم.